أجاثا كريستي

سَاعة الصِّفْر

دار النجمة للنشر والتوزيع

ساعة الصِّفْر

بسم الله الرحمن الرحيم

أجاثا كريستي

ساعة الصِّفْر

دار النجمة للنشر والتوزيع

جميع حقوق هذه الطبعة محفوظة للناشر:
دار النجمة للنشر والتوزيع

يُمنَع تصوير أو إعادة إنتاج هذا الكتاب
ورقياً أو إلكترونياً إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

للاستفسار والطلبات التجارية
AgathaBooks@sardira.com

الفصل الأول

كانت الجماعة التي جلست أمام المدفأة كلها تقريباً من رجال القضاء والقانون. كان هناك مارتنديل المحامي ورافاس لورد وكيل النائب العام ودانيز المحامي الشاب (الذي برز اسمه في قضية كرستير) والقاضي كليفر والمحامي لويس (أحد صاحبَي مكتب لويس وترنش المحاميين) والسيد تريفز العجوز الذي ناهز الثمانين.

وكان تريفز هو أبرز عضو في مكتب كبير للمحامين اشتهر بأنه حسم كثيراً من القضايا الدقيقة خارج المحكمة وأنه من أكبر الأخصائيين في عالم الجريمة، وعلى الرغم من أنه اعتزل العمل منذ مدة طويلة إلاّ أنه لم يكن في إنجلترا كلها رجل يحترم القضاءُ والقانون آراءه كما يحترمون رأيه. كان إذا تكلم صمتت جميع الأصوات وأرهفت كل الآذان.

وكان حديث الجماعة التي جلست أمام المدفأة في ذلك المساء يدور حول قضية قتل كُثُرَ فيها اللغط في الأيام الأخيرة، وقد فرغت محكمة جنايات أولد بيلي في ذلك اليوم من نظرها وأصدرت فيها حكماً ببراءة المتهم. فتناولت الجماعة القضية

بالتحليل والتعقيب والنقد الفني.

واتفقت الآراء على أن الادعاء أخطأ حين اعتمد كل الاعتماد على شاهد واحد فهيأ بذلك للدفاع فرصة أكبر، وأن الدفاع عرف كيف يستغل شهادة الخادمة. لقد لخص القاضي بنتمور وقائع القضية تلخيصاً لا غبار عليه، ولكن الضرر كان قد حدث فعلاً، فإن المحلفين كانوا مقتنعين بصدق الخادمة، ومتى اقتنع المحلفون بأمر تعذر تحويلهم عنه. أما شهادة الطبيب الشرعي فكانت كالعادة مجموعة من الألفاظ الغريبة والعبارات المعقدة لأن الأطباء الشرعيين لا يجيبون على الأسئلة أبداً بكلمة نعم أو لا، وإنما يضيفون عبارات من شأنها أن تبلبل المستمع، مثل قولهم: "هذا يمكن حدوثه في ظروف معينة" أو قولهم: "هذا جائز لو أننا راعينا كذا"...

ثم هدأت المناقشة شيئاً فشيئاً وخفتت الأصوات، وأحسوا جميعاً في لحظة ما بأن هناك صوتاً لم يسمعوه، وبدأت الأنظار تتجه نحو السيد تريفز. لم يكن هذا قد اشترك في الحوار فبات واضحاً أن الجماعة تنتظر الكلمة الحاسمة الأخيرة من فم أبرز أعضائها وأصوبهم رأياً. كان السيد تريفز يمسح نظارته وهو شارد الذهن حين تنبه إلى صمتهم فنظر بحدة وقال: ماذا قلتم؟ هل وجهتم لي سؤالاً؟

- كنا نتحدث عن قضية لامورن يا سيدي.

- آه نعم، نعم. وأنا كنت أفكر في هذه القضية أيضاً.

فصمتوا جميعاً وأرهفوا آذانهم، فقال تريفز وهو لا يزال يمسح زجاج نظاراته: لكن أفكاري جنحت إلى الخيال، ولعل

السبب أنني تقدمت في السن. من حق الإنسان في مثل سني أن يجنح إلى الخيال أحياناً.

ارتسمت الحيرة على وجه المحامي لويس ولكنه قال: طبعاً، طبعاً يا سيدي.

قال تريفز: لقد كنت أفكر في القضية لا من حيث وجهات النظر القانونية التي أثيرت فيها (وهي وجهات نظر جديرة بالاهتمام، ولو أنه صدر حكم مختلف لكانت هناك أسباب قوية تجيز استئنافه)، وإنما كنت أفكر فيها من حيث الأشخاص الذين لعبوا دوراً فيها.

فبدت الدهشة على وجوه المستمعين، ذلك أن أحداً منهم لم يفكر في هؤلاء الأشخاص إلاّ من حيث صدقهم أو كذبهم كشهود، ولم يجرؤ أحدهم على التفكير في المتهم، هل هو بريء حقاً كما قالت المحكمة أو أنه مذنب.

ومضى تريفز يقول: كنت أفكر في الآدميين بأحجامهم المختلفة وأشكالهم المتباينة وعقلياتهم المتنافرة. لقد جاؤوا من كل مكان، من لانكشاير ومن اسكتلندا ومن غرب إنجلترا، وجاء صاحب المطعم من إيطاليا، وانصهروا جميعاً في بوتقة الأحداث، وجيء بهم جميعاً في النهاية إلى محكمة الجنايات في لندن في يوم أغبر من أيام شهر تشرين الثاني (نوفمبر). لقد قام كل منهم بدوره الصغير، ثم اتخذت هذه الأدوار جميعاً في النهاية صورة قضية أمام محكمة الجنايات.

صمت قليلاً وأخذ يدق ركبته بأنامله ثم استطرد قائلاً: أنا أحب القصة البوليسية الجيدة، ولكن القصص جميعاً تبدأ بداية

خاطئة، إنها تبدأ بجريمة القتل في حين أن جريمة القتل هي النهاية، أما بداية القصة فإنها تكون قبل ذلك بكثير، حين تتهيأ الأسباب وتبدأ الأحداث التي تسوق أناساً معينين إلى مكان معين في ساعة معينة من يوم معين. إليكم مثلاً شهادة الخادمة في قضية اليوم، لو لم تخطف الطاهية عشيقها لما تركت عملها الأول لتلتحق بخدمة أسرة لامورن وتصبح شاهدة النفي الرئيسية في القضية. وذلك الخادم المدعو جوزيبي أنطونيللي، لقد جاء من إيطاليا خصيصاً ليعمل مكان أخيه حتى ينعم أخوه بإجازة قصيرة. وكان الأخ ضعيف البصر، فلو لم يحصل على إجازته لما رأى ما رآه جوزيبي أنطونيللي خلال الفترة القصيرة التي قضاها في خدمة الأسرة. ولو لم ينشغل الشرطي بمغازلة الطاهية بالمنزل رقم ٤٨ لما غاب عنه ساعة وقوع الجريمة... كل هذه الأحداث الصغيرة التي بدأها أشخاص مختلفون في أماكن مختلفة وأوقات مختلفة قد تصاعدت وتبلورت وانتهت إلى ما أسميه «ساعة الصفر».

وفي تلك اللحظة مرت بجسده رعدة خفيفة فقال قائل: هل تشعر بالبرد يا سيد تريفز؟

– كلا، كلا. يبدو أن أحدهم مشى فوق قبري كما يقولون. على كل حال أظن أن الوقت قد حان لكي أعود إلى بيتي.

أومأ برأسه تحية للجميع وغادر الغرفة وهو يمشي بخطى بطيئة. ومرت فترة صمت طويلة قبل أن يقول رافاس لورد وهو يهز رأسه: مسكين السيد تريفز، لقد أوهنته الشيخوخة.

قال القاضي السير ويليم كليفر: إنه رجل ذو عقل جبار.

فقال لورد: أعتقد أنه يعاني مرضاً في القلب، وقد يسقط ميتاً في أية لحظة.

فقال لويس: إنه يعتني بنفسه أشد العناية.

* * *

في تلك الأثناء كان السيد تريفز يستقل سيارة فخمة ذهبت به إلى بيت في حي هادئ، وهناك خف كبير الخدم لمساعدته على خلع معطفه، وسار تريفز بعد ذلك إلى غرفة المكتبة حيث كانت النار تتلظى في المدفأة. كان فراش تريفز يحتل ركناً في قاعة المكتبة، فقد حرص الرجل على ألا يرقى الدرج إلى الطابق الأول نظراً لحالته الصحية فجلس أمام المدفأة وشرع في قراءة الرسائل التي وردت إليه في ذلك اليوم. كان فكره لا يزال مشغولاً بالنظرية التي أدلى بها في قاعة النادي، فقال لنفسه: من يدري؟ لعل هناك الآن مأساة أو جريمة قتل في مرحلة الإعداد. لو أنني الآن بسبيل كتابة قصة بوليسية لبدأتها برجل متقدم في السن يقرأ رسائله أمام مدفأة ويتجه دون أن يدري نحو ساعة الصفر.

فضّ إحدى الرسائل وألقى نظرة سريعة على مضمونها، ويبدو أنه وجد فيها ما رده من عالم الخيال إلى دنيا الحقيقة، فقد تقلص وجهه فجأة وقال: هذا أمر مزعج حقاً! أيحدث ذلك بعد كل هذه السنين؟ لقد قُلبت مشروعاتي رأساً على عقب.

* * *

الفصل الثاني
أبطال المأساة

١١ كانون الثاني (يناير)

تحرك الرجل في فراشه بالمستشفى وكتم وجعه حتى كادت تفلت من فمه أنّة، ونهضت الممرضة المشرفة على عنبر المرضى من مقعدها واقتربت من فراش الرجل وأعادت تنظيم وسائده، وحركت جسد الرجل ليستقر في وضع مريح، فتمتم الرجل بكلمة غير واضحة على سبيل الشكر.

كان يشعر بمزيد من الغضب والمرارة ويلعن في سره تلك الشجرة العجيبة التي نمت تحت الربوة فلم يفطن إلى وجودها، ولعن أولئك العشاق المغفلين الذين يتحدّون البرد والصقيع لينعموا بالخلوة فوق ربوة تطل على البحر. لولا تلك الشجرة اللعينة وأولئك العشاق الحمقى لانتهى كل شيء. لم يكن الأمر سيكلفه أكثر من قفزة إلى الماء المثلج العميق ومقاومة وجيزة، ثم تأتي الغيبوبة وتنتهي حياة عقيمة لا معنى لها ولا هدف ولا قيمة. والآن أين هو؟ إنه طريح الفراش في مستشفى ومصاب بكسر في أحد ضلوعه، ومن المحتمل جداً أن يقدّم إلى المحاكمة بتهمة محاولة الانتحار. قبحهم الله! إنها حياته

هو، أليس كذلك؟ ولو قد نجحت محاولته لواروه التراب بكل الإجلال والاحترام باعتباره إنساناً بائساً فقد عقله. ولكن هل فقد عقله حقاً؟ إنه لم يكن في وقت ما أعقل مما كان حين ألقى بنفسه من فوق الربوة لتتلقفه تلك الشجرة اللعينة وتكسر ضلعه، وإقدامه على الانتحار كان الشيء الوحيد المعقول الذي يجب أن يفعله رجل في مثل مركزه، رجل اعتلّت صحته وهجرته زوجته وفقد عمله وأصبح بلا مال أو صحة أو أمل، والآن ها هو في موقف يبعث على السخرية، وسوف ينحي عليه القاضي باللائمة لأنه فعل الشيء الوحيد المعقول بحياته التي هي ملك خاص له وحده.

وأفلتت من فمه أنة عميقة فأسرعت إليه الممرضة مرة أخرى. كانت في مقتبل العمر ذات شعر أحمر ووجه لا يعبر عن شيء، سألته: هل تتألم كثيراً يا سيد كويرتر؟

- لا.

- سأعطيك عقاراً منوماً.

- لا، لا تفعلي.

- ولكن...

- أتظنين أنني لا أستطيع احتمال بعض الألم والأرق؟

فارتسمت على شفتيها ابتسامة رقيقة وقالت: لقد سمح الطبيب بأن تتناول عقاراً منوماً.

- لا يهمني الطبيب وما يسمح به.

رتبت الممرضة الأغطية ووضعت كوباً من عصير الليمون

على المائدة الصغيرة بجوار الفراش، فقال وقد أحس بالخجل من خشونته: أنا آسف، فقد كنت فظاً.

- لا عليك.

وضايقه أنها لم تعبأ قليلاً أو كثيراً بخشونته ونوبات غضبه، وغاب عنه أنها ممرضة ترى من واجبها أن تنأى بنفسها عن مثل هذه الانفعالات وأنها تعامله كمريض لا كرجل.

استطردت قائلة: لا عليك. ستكون في حالة أفضل غداً صباحاً.

فصاح: تباً أيتها الممرضات! إنكنّ مجردات من كل شعور إنساني.

- نحن أعرف منك بمصلحتك.

- ما يغيظني منكنّ ومن المستشفى ومن الدنيا كلها هو التدخل المستمر في شؤون الغير بدعوى أنكنّ تعرفن مصلحتهم أكثر منهم. لقد حاولت الانتحار، هل تعلمين ذلك؟

- نعم.

- ولا شأن لأحد بي سواء ألقيت بنفسي من فوق ربوة أو تحت قطار، إن صلتي بالحياة قد انتهت تماماً.

قلبت شفتها ولم تجب، فصاح: لماذا لا أستطيع أن أقتل نفسي متى شئت؟

- لأن ذلك خطأ.

- لماذا؟

فنظرت إليه في ارتياب ولم تجد ما تعبر به عن شعورها، ولكنها قالت ببساطة: على الإنسان أن يعيش سواء أراد أو لم يرد.

- وماذا يجعلك أنت تعيشين؟

- لعل هناك من هو بحاجة لي.

- أما أنا فأختلف عنك في ذلك، فليس في الدنيا كلها شخص واحد يهمه أن أعيش أو أموت.

- أليس لك أقارب؟ أليس لك أم أو أخت؟

- كلا، كانت لي زوجة هجرتني، وبحق. لقد وجدت أنني إنسان تافه لا فائدة منه.

- لكن من المؤكد أن لك أصدقاء؟

- لست الرجل الذي يأنس إليه الأصدقاء. أصغي إليّ أيتها الممرضة، سأروي لك قصة. لقد كنت رجلاً سعيداً في وقت ما، كانت لي وظيفة طيبة وزوجة جميلة. وذات يوم وقع حادث سيارة. كان صاحب العمل يقود السيارة وكنت راكباً معه، فطلب مني أن أشهد بأنه كان يقود السيارة بسرعة أقل من ثلاثين كيلومتراً عندما وقع الحادث، والحقيقة أنه كان يقود بسرعة تزيد على خمسين كيلومتراً. ولم يسفر الحادث عن مقتل أحد ولكنه أراد أن يكون موقفه سليماً أمام شركة التأمين، غير أنني رفضت أن أشهد بما أراد، رفضت أن أكذب لأنني أمقت الكذب.

- أظن أنك كنت على حق.

- أتظنين ذلك؟ ولكن ما قولك في أن إصراري على الحق أفقدني وظيفتي! لقد حنق عليّ صاحب العمل ففصلني، ثم بذل قصارى جهده ونفوذه لكيلا أحصل على عمل آخر. وضاقت زوجتي ذرعاً بتعطلي فهربت مع رجل من أصدقائي كان يشغل وظيفة طيبة وينتظره مستقبل باهر بينما كنت أنا أتدهور باستمرار، فأدمنت الخمر وأضعت كل فرص العمل وانتابتني الأمراض، وقال الطبيب إنني لن أسترد صحتي. فلم أجد بعد ذلك ما أعيش من أجله، وإن أبسط حل وأيسره هو أن أتخلص من حياة لا جدوى منها لأحد.

قالت الممرضة: من أدراك؟

فضحك، أضحكه عنادها الساذج فقال لها: يا بنيتي العزيزة، ما فائدتي الآن لأي إنسان؟

فأجابت بشيء من الارتباك: وما أدراك؟ قد تفيد أحداً يوماً ما.

- يوماً ما؟ لن يكون هناك يوم ما، وفي المرة القادمة سأكون حريصاً على ألاّ أفشل.

- في المرة القادمة؟ كلا، إنك لن تقدم على الانتحار مرة أخرى.

- ولم لا؟

- لأن الناس قلما يقدمون على الانتحار مرتين.

همّ بأن يحتج ولكن أمانته الفطرية منعته من الكلام. وراح يتساءل: هل كان في نيته حقاً أن يعيد الكرّة؟ شعر فجأة بأنه لن

يستطيع لسبب ما، أو ربما كان السبب ما قالته الممرضة بحكم خبرتها، وهو أن الناس قلما يقدمون على الانتحار مرتين. بيد أنه أراد أن يرغمها على الاعتراف بحقه في الانتحار من حيث المبدأ فقال: على كل حال فإن من حقي أن أفعل بحياتي ما أريد.

قالت: ليس ذلك من حقك.

- ولِمَ أيتها الفتاة العزيزة؟

فاحمرّ وجهها وارتبكت لحظة يسيرة ولكنها ما لبثت أن قالت: أنت لا تفهم، لعل الله يريدك لأمر ما.

دُهِش، ولكنه لم يشأ أن يزعزع إيمانها الفطري فقال ساخراً: لعله يريدني أن أمسك يوماً ما بجواد جامح فأمنعه من أن يسحق طفلاً صغيراً ذهبي الشعر.

- إن وجودك في مكان معين في وقت معين، وحتى ولو لم تفعل شيئاً، قد يؤدّي... وتلعثمت وازداد وجهها احمراراً فأردفت: لا أستطيع التعبير جيداً. أعني أن مجرد وجودك في مكان ما في وقت ما حتى ولو لم تفعل شيئاً قد يكون في ذاته عملاً عظيم الأهمية دون أن تدرك.

* * *

١٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

لم يكن بالغرفة سوى شخص واحد، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت القلم الذي يكتب به ذلك الشخص على ورقة أمامه. ولم يكن هناك من يقرأ الكلمات التي كتبها، وحتى

لو كان هناك من يقرؤها لما صدق عينيه، لأن ما كتبه ذلك الشخص كان مشروعاً واضحاً مفصلاً لارتكاب جريمة قتل!

* * *

توجد ظروف يشعر فيها الجسد بأن هناك عقلاً يحكمه ويسيطر على أعماله وحركاته، وظروف أخرى يشعر فيها العقل بسيطرته على الجسد وبقدرته على تسخيره في تنفيذ أغراضه. وقد كان الشخص الذي نحن بصدده يمر بالحالة الثانية. كان مجرد عقل جبار له هدف واحد هو تدمير إنسان آخر، ولتحقيق هذا الهدف راح ذلك الشخص يضع على الورقة خطة محكمة مرسومة بعناية ومحسوباً فيها حساب جميع الاحتمالات الممكنة ومحدداً فيها الزمان والمكان والضحية. ورفع الشخص رأسه وأمسك بالورقة وقرأها بعناية. ارتسمت على شفتيه ابتسامة شيطانية لا يمكن أن تكون ابتسامة إنسان عاقل تماماً، ثم أعاد قراءة الورقة فاكتشف أنه قد أغفل التاريخ، فتناول القلم وكتب تاريخ يوم في شهر أيلول (سبتمبر)، ثم قهقه ضاحكاً ومزق الورقة وألقى بأجزائها في الموقد وظل يراقبها حتى احترقت تماماً.

احترقت الورقة ولكن الخطة بقيت في عقل صاحبها.

* * *

٨ آذار (مارس)

جلس المفتش باتل إلى مائدة الإفطار وبيده الرسالة التي قدمتها إليه زوجته وهي تبكي. لم يبدُ عليه أي انفعال.

كان وجهه دائماً جامداً لا يعلوه أي تعبير وكأنه قد نُحت من خشب.

قالت زوجته وهي تنشج بالبكاء: لا أستطيع أن أصدق أن سيلفيا تفعل ذلك.

كانت سيلفيا أصغر أولادهما الخمسة وهي في نحو السادسة عشرة من عمرها وطالبة بمدرسة بالقرب من ميدستون. وكانت الرسالة من الآنسة أمفري مديرة المدرسة المذكورة، وقد كُتبت بوضوح وأدب ولباقة وجاء فيها أنه قد حدثت في المدرسة في المدة الأخيرة عدة سرقات صغيرة حيرت إدارة المدرسة، ثم اتضحت الأمور أخيراً واعترفت سيلفيا باتل بالسرقة، وأن المديرة تود مقابلة السيد باتل وزوجته في أقرب فرصة لبحث الموقف.

طوى المفتش باتل الرسالة ووضعها في جيبه وقال لزوجته: دعي الأمر لي يا ماري.

ونهض من مكانه ودار حول المائدة فربت على كتف زوجته واستطرد قائلاً: لا تنزعجي أيتها العزيزة، سيكون كل شيء على ما يرام.

* * *

بعد ظهر ذلك اليوم اجتمع المفتش باتل بالآنسة أمفري في مكتبها. كانت الآنسة أمفري مربية ناجحة ذات شخصية قوية وثقافة عصرية واسعة، وقد قالت للمفتش في معرض الحديث الذي دار بينهما: المهم هو أن نعالج الموضوع

بحكمة وأن نضع نصب أعيننا مصلحة الفتاة وحدها، إذ لا يجب أن يتأثر مستقبلها أو حياتها بحال أو أن تشعر في أي وقت بعقدة الذنب، وإذا وجه إليها أي لوم أو تعنيف فيجب أن يكون بلباقة وبأقل قدر ممكن، وينبغي قبل كل شيء أن نعرف حقيقة الأسباب الكامنة وراء هذه السرقات الصغيرة. قد يكون أحد هذه الأسباب شعورها بمركب نقص، فإنها ليست بارعة في الألعاب الرياضية ولعلها أحست برغبة خفية في أن تلمع في مجال آخر. لذلك يجب أن نعمل بحذر شديد. وقد رغبت في مقابلتك أولاً على انفراد لكي أوصيك بالرفق بها، وأكرر ما قلته أولاً، إن أهم شيء هو التوصل إلى معرفة الدوافع الخفية وراء هذه السرقات الصغيرة.

فأجاب الرجل في هدوء وهو يقيّم مديرة المدرسة بإحدى نظراته الفاحصة: أنا ما جئت إلاّ لذلك.

- لقد عاملتها بكل عطف ورفق.

- هذا كرم منك يا سيدتي، حبذا لو رأيتها الآن إذا لم يكن هناك مانع.

رافقته إلى غرفة صغيرة وقالت له إنها سترسل إليه ابنته. وعندما همّت بمغادرة الغرفة استوقفها باتل قائلاً: لحظة يا سيدتي، كيف عرفت أن سيلفيا هي المسؤولة عن السرقات؟

- لقد عرفت ذلك بوسائلي السيكولوجية.

- السيكولوجية؟ ولكن أين الأدلة يا آنسة أمفري؟

- أعرف ما تعنيه يا سيد باتل. إنك تطلب أدلة بالمعنى

المتفق عليه في مهنتك كشرطي، ولكن الوسائل السيكولوجية والتحليل النفسي أصبحا شيئاً معترفاً به في علم الجريمة، وأؤكد لك أنه لم يحدث أي خطأ. أضف إلى ذلك أن سيلفيا قد اعترفت بكل شيء بمحض إرادتها.

- نعم، نعم، أعلم ذلك. إنما أردت أن أعرف كيف استدللت عليها.

- عندما تفاقمت حوادث السرقة دعوت الطالبات وطرحت عليهن الحقائق، وتفرست في وجوههن وأنا أفعل ذلك، وفوجئت بالتعبيرات التي ظهرت واضحة على وجه سيلفيا. كانت تعبيراتها تنم عن الارتباك والإحساس بالذنب فعرفت على الفور أنها المذنبة، ولكني لم أواجهها بالاتهام وإنما أجريت اختباراً بسيطاً عن دلالات الألفاظ.

فهز باتل رأسه دلالة على أنه لم يفهم، ونظرت إليه الآنسة أمفري وترددت لحظة ثم غادرت الغرفة.

* * *

عندما فُتح باب الغرفة مرة أخرى كان باتل يطل من إحدى النوافذ، فنظر وراءه ببطء وأبصر بابنته. كانت طويلة سمراء وعلى وجهها آثار الدموع، وقالت في خجل: هأنذا يا أبي.

نظر إليها باتل طويلاً وهو شارد الذهن ثم تنهد وقال: ما كان ينبغي أن ألحقك بهذه المدرسة، إن مديرتها امرأة حمقاء.

فنسيت الفتاة متاعبها وتملكتها الدهشة وهتفت: الآنسة أمفري؟ إنها رائعة، الجميع يقولون ذلك.

- إذن فهي ليست حمقاء تماماً ما دامت قد استطاعت أن تترك في نفوسكن هذا الانطباع، وعلى كل حال فإن هذه المدرسة لا تلائمك رغم أن ما حدث لك هنا كان يمكن أن يحدث في أية مدرسة أخرى.

فعقدت الفتاة أصابعها ونكست رأسها وهي تقول: أنا آسفة يا أبي، أنا آسفة حقاً.

- يجب أن تكوني آسفة. اقتربي مني.

فتقدمت نحوه ببطء، وأمسك ذقنها بيده الضخمة ونظر في وجهها ملياً ثم قال بلطف: لقد عانيت الكثير، أليس كذلك؟

فاغرورقت عيناها بالدموع فيما قال هو ببطء: كنت أعرف منذ وقت طويل أن بك عيباً، إن أكثر الناس لهم مواطن ضعف من نوعٍ ما، ومواطن الضعف تبدو دائماً واضحة، وفي استطاعة الإنسان أن يعرف بسهولة الطفل الجشع أو الطفل السيئ الطباع أو المشاكس، ولكنك كنت دائماً طفلة هادئة وديعة دمثة الخلق، وكان ذلك يهمني ويقلقني، فإن صاحب العيب الخفي كثيراً ما يتحطم من أول صدمة.

- مثلي.

- نعم، مثلك، فقد تهاويتِ تحت الضغط بسرعة لم أشهد لها مثيلاً.

قالت الفتاة فجأة: أظن أنك قابلت كثيراً من اللصوص في حياتك العملية يا أبي.

- نعم، وأعرف كل شيء عنهم، ولذلك أعتقد عن يقين (لا كأب، فإن الآباء لا يعرفون الكثير عن أولادهم، وإنما كشرطي) أنك لست لصة وأنك لم تسرقي شيئاً من هذه المدرسة. إن اللصوص على نوعين، نوع يستسلم للإغراء الفجائي القوي ونوع يأخذ ما ليس له بطريقة تلقائية، وأنت لست من هذين النوعين، أنت لست لصة ولكنك كذابة من طراز غير عادي.

- ولكن...

- لقد اعترفت بكل شيء، أليس كذلك؟ حسناً، أصغي إليّ: يُحكى أن إحدى القديسات تعودت أن تملأ سلتها خبزاً لتوزعه على الفقراء، ولم يعجب ذلك زوجها، واتفق أنه قابلها في الطريق وسألها عما في سلتها، ففقدت أعصابها وقالت إن بالسلة زهوراً، وكانت معجزة! والآن، لو أنك كنت قديسة وخرجت بسلة من الزهور وقابلك زوجك وسألك عما بالسلة فإنك ستفقدين أعصابك وتقولين: إن بالسلة خبزاً. وتريث لحظة ثم قال بلطف: ذلك ما حدث، أليس كذلك؟

فصمتت الفتاة وقتاً طويلاً ثم نكست رأسها. قال: أخبريني يا بنية، ماذا حدث بالضبط؟

- لقد دعتنا جميعاً وألقت علينا كلمة، ولاحظت أنها تنظر إليّ طول الوقت وأدركت بأنها ترتاب فيّ، وشعرت بحمرة الخجل تصبغ وجهي، ورأيت بعض الفتيات ينظرن إليّ ثم راح غيرهن ينظرن إليّ ويتهامسن، كان من الواضح أنهن جميعاً يعتقدن أنني اللصة، وفي المساء دعتني الآنسة أمفري مع

بعض الفتيات وشرعنا في لعبة تعتمد على الألفاظ. كانت تقول عبارة ونحن نبحث عن جوابها، وكانت عباراتها جميعاً تهدف إلى معنى واحد، وقد فهمت هذا المعنى وأصابني نوع من الشلل وحاولت ألا أخطئ وأن أصرف ذهني عن المعنى الذي تهدف إليه بالتفكير في أشياء أخرى، كالطيور والزهور، ولكن الآنسة أمفري كانت تتفرس في وجهي بعينين كعيني الصقر ونظراتها تكاد أن تنفد إلى أعماقي. وأخذ الموقف يزداد سوءاً لحظة بعد أخرى، وفي أحد الأيام دعتني إليها وتحدثت إليّ برفق شديد وبأسلوب من يعرف في بواطن الأمور. فتداعيت واعترفت بالسرقة وأحسست بعد الاعتراف كأن عبئاً ثقيلاً قد زال عن صدري.

فهزّ الرجل رأسه ببطء وقال: هكذا؟

- هل فهمت يا أبي؟

- كلا يا سيلفيا، لم أفهم لأنني من طينة أخرى غير طينتك، ولو طلب إليّ أحدٌ أن أعترف بشيء لم أفعله فإنني أبادره بلكمة تشوه وجهه. ولكن لا بأس، المهم الآن أن نجلو هذا الموقف القذر. أين الآنسة أمفري؟

* * *

كانت الآنسة أمفري تتسكع خارج الغرفة ولكن الابتسامة تلاشت عن شفتيها حين قال لها المفتش باتل بصراحة: إنني أطالبك إنصافاً لابنتي بأن تستدعي الشرطة المحلية للتحقيق في هذا الموضوع.

- لكن يا سيد باتل إن سيلفيا نفسها...

- سيلفيا لم تمس شيئاً لا يخصها.

- أنا أفهم شعورك كأب، ولكن...

- أنا لا أتكلم كأب وإنما أتكلم كشرطي، اطلبي الشرطة لمساعدتك في إماطة اللثام عن المسؤول الحقيقي عن هذه الحوادث وكوني مطمئنة إلى كياستهم وكتمانهم، وأنا واثق من أنكم ستجدون الأشياء المفقودة مخبأة في مكان وعليها بصمات أصابع المسؤول. إن صغار اللصوص لا يستخدمون القفازات. أما الآن فسوف أصطحب ابنتي، وإذا وجدت الشرطة دليلاً يدينها فإنني على استعداد لاقتيادها بنفسي إلى المحكمة لتنال جزاءها ولكني مطمئن إلى براءتها.

* * *

بعد نحو خمس دقائق كان يستقل سيارته ومعه ابنته، وقبل أن تتحرك السيارة سأل الفتاة: مَن الفتاة ذات الشعر الأشقر والعينين الزرقاوين والخدين الموردين التي رأيناها في الدهليز؟

- إنها أوليف بارسونز.

- لن أدهش إذا ظهر أنها اللصة.

- لماذا؟ هل كان يبدو عليها الخوف؟

- لا، بل كانت هادئة أكثر مما ينبغي. ولقد رأيت مئات من أمثالها في محاكم الشرطة، ولكني أراهن أنها ليست من

الطراز الذي يعترف بسهولة.

فتنهدت الفتاة وقالت: يخيّل إليّ كأنني كنت في حلم مزعج. أنا آسفة يا أبي لأنني تصرفت على هذا النحو.

قال وهو يربت على كتفها: لا عليك يا بنية، إن الأقدار تبتلينا بمثل هذه الأمور لاختبارنا.

* * *

١٠ نيسان (أبريل)

كانت الشمس تصلي بيت نيفيل سترينج في هايندهيد ناراً حامية رغم أن اليوم كان أحد أيام شهر نيسان (أبريل)، ولكنه كان يعيد إلى الأذهان أيام القيظ في شهر حزيران (يونيو). هبط نيفيل سترينج الدرج وتحت إبطه إربة مضارب مما يستعمل في لعب التنس. ولو طُلب إلى إحدى اللجان أن تختار بين الإنجليز أنموذجاً للرجل السعيد الحظ الذي لا ينقصه شيء لوقع اختيارها على نيفيل سترينج. لقد عرفته الجماهير كرياضي ولاعب تنس من الطراز الأول، وعرفته كسباح ولاعب غولف ومتسلق للجبال، وكان فضلاً عن ذلك في الثلاثين من عمره وينعم بصحة جيدة ووجه وسيم وثروة طائلة وزوجة جميلة اقترن بها أخيراً. فهو فيما يعلم الناس إنسان سعيد لا يعرف من هموم الحياة ما يعرفه سواه.

هبط نيفيل الدرج واجتاز الصالة وخرج إلى الشرفة حيث كانت زوجته كاي تجلس بين الوسائد على أريكة كبيرة وبيدها كوب من عصير البرتقال. كانت كاي في نحو الثالثة والعشرين

من عمرها ذات جمال غير عادي، عيناها سوداوان وشعرها أحمر وبشرتها بيضاء كالثلج.

هتف نيفيل حالما رآها: ماذا عندك للإفطار أيتها الحسناء؟

فأجابت: بيض ولحم مقدد وخبز وزبد وعصير.

- هذا رائع.

تناول نيفيل إفطاره وشرب كوباً من القهوة، ولم يدر بين الزوجين حديث إلى أن قالت كاي: انظر إلى الشمس يا نيفيل. هل رأيت في إنجلترا يوماً أجمل من هذا؟

كانا قد عادا لتوهما من رحلة في جنوب فرنسا. وتناول نيفيل إحدى الصحف وألقى نظرة سريعة على عناوين الصفحة الأولى ومثلها على صفحة الرياضة، ثم ألقى الجريدة جانباً وأخذ بعض رسائله. كان معظمها إعلانات ونشرات.

قالت كاي: ديكور الصالون لا يعجبني، إنه يحتاج إلى تعديل، فما رأيك؟

- افعلي ما تشائين أيتها الحسناء. وبهذه المناسبة، لقد دعتنا شيرلي إلى رحلة للنرويج على ظهر يختها في حزيران (يونيو) القادم. أليس من المحزن ألا نلبي هذه الدعوة؟

نظرت إليه من ركن عينها بحذر واستطردت قائلة في أسى: كم كنت أود الاشتراك في مثل هذه الرحلة!

عبرت وجه نيفيل سحابة مظلمة ولم يجب، وقالت كاي: هل من الضروري أن تذهب إلى كاميللا وقصرها العتيق؟

فقطب نيفيل حاجبيه وأجاب: نعم. أصغي إليّ يا كاي، لقد ناقشنا هذا الموضوع مراراً قبل الآن، وقلت لك إن السير ماتيو كان وصياً عليّ وهو وزوجته كاميللا أشرفا على تربيتي منذ نعومة أظفاري، فبيتهما في جالز بونيت هو بيتي ومسقط رأسي.

- حسناً، إذن لا بد مما ليس منه بد. وعلى كل حال إن ثروتها ستؤول إلينا.

- إنها ثروة السير ماتيو، وقد أوصى بها لها على أن تؤول إليّ بعد موتها. لكن المسألة ليست مسألة ميراث، إنما هي مسألة عاطفية بحتة، ألا تفهمين؟

- هل تعلم لماذا أنفر من الإقامة في قصر كاميللا يا نيفيل؟ إنني أنفر منها لأنهم يكرهونني هناك، فالليدي تريسيليان تنظر إليّ من عليائها وماري إيلدن تتجنب النظر إليّ وهي تحدثني... إن الإقامة تطيب لك هناك لأنك لا ترى ما يحدث.

- إنهم يعاملونك دائماً بأدب، وما كنت أطيق أن يعاملوك بغير ذلك.

فقالت وهي تنظر إليه من ركن عينها وأهدابها السوداء الطويلة تخفق بسرعة: نعم، إنهم مهذبون تماماً ولكنهم يعرفون كيف يثيرونني. إنهم ينظرون إليّ كأنني دخيلة.

- ذلك أمر طبيعي، فلا لوم عليهم.

ونهض واقفاً وأولاها ظهره وراح يمتّع عينيه بمنظر الطبيعة، فقالت وصوتها يرتجف قليلاً: نعم، ذلك أمر طبيعي

لأنهم كانوا يحبون أودري، أودري المهذبة الباردة التي لا لون لها. إن كاميللا لن تغفر لي أنني حللت محلها.

- لا يجب أن تنسي أن كاميللا قد تجاوزت السبعين وأنها من جيل لا يقر الطلاق، ولكنها ارتضت الأمر الواقع ووافقت على طلاقي من أودري رغم حبها لها وعطفها عليها.

- إنهم يعتقدون أنك كنت تسيء معاملتها.

فقال بصوت خافت جداً: أظن أنهم على حق.

لكن كاي سمعته وقالت في غضب: لا تكن مغفلاً يا نيفيل، لقد أحدثت حولها ضجة مفتعلة لكي تثير عطفهم عليها.

- أودري لم تحدث أية ضجة.

- أعني أنها كانت مريضة وكانت تبدو حزينة كسيرة القلب، فأثارت عطف الجميع عليها؛ تلك هي الضجة التي أعنيها. إن أودري ليست من أولئك الذين يتقبلون الهزيمة بصدر رحب، والرأي عندي أن الزوجة التي لا تستطيع الاحتفاظ بزوجها ينبغي عليها أن تتخلى عنه في سماحة ورضا، والواقع أنه لم يكن بينكما أية صفة مشتركة، فهي لا تقبل على الألعاب الرياضية التي تحبها أنت وحالتها الصحية لا تسمح لها بالقيام بأي نشاط. كانت أشبه بخرقة مهلهلة، ولو أنها أحبتك حقاً لوضعت سعادتك في المكان الأول ولسرها أن تراك سعيداً مع امرأة أخرى تلائمك.

فقال وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة: دعيني أحيي فيك

السماحة والخلق الرياضي.

ضحكت كاي واحمر وجهها، وقالت: ربما أكون قد بالغت، إنما أردت أن أقول إن على الإنسان أن يقبل الواقع.

- لقد قبلت أودري الواقع وطلقتني لكي أستطيع الاقتران بك.

- أعلم ذلك، ولكن...

- إنك لم تفهمي أودري قط.

- هذا صحيح، ولعل السبب أنها مخلوقة غامضة لا يمكنك أن تعرف فيمَ تفكر. إنها تخيفني في بعض الأحيان، ربما لأنها خارقة الذكاء.

- أعتقد أنك على حق أيتها الحبيبة البلهاء.

فضحكت كاي وقالت: لماذا تصفني بالبلاهة؟

وابتسما، واقترب منها نيفيل وقبلها وهو يتمتم: بلهاء وفاتنة.

- وطيبة القلب، تضحي برحلة جميلة في يخت وتذهب إلى قصر عتيق يضايقها فيه أقارب زوجها.

قال وهو يعود إلى مقعده: الواقع أنني لا أرى ما يدعونا إلى التخلف عن رحلة شيرلي إذا كنت تتوقين إلى هذه الرحلة حقاً.

فنظرت إليه في دهشة ولم تصدق أذنيها، ثم قالت: وماذا عن قصر كاميللا؟

- نستطيع الذهاب إليه في شهر أيلول (سبتمبر).

- ولكن يا نيفيل...

فقاطعها: يجب أن نسقط من حسابنا شهري تموز (يوليو) وآب (أغسطس)، ففيهما تُعقد مباريات التنس السنوية التي تنتهي في الأسبوع الأخير من آب (أغسطس).

- كل هذا حسن، ولكني أعتقد أنها اعتادت أن تذهب إلى قصر كاميللا في شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام.

- من تعنين؟ أودري؟

- نعم، ولكن أظن أن الليدي تريسيليان لن تمانع في مطالبتها بأن ترجئ زيارتها إلى وقت آخر.

- لماذا؟

نظرت إليه بارتياب وقالت: هل تعني أننا نستطيع أن نتواجد معها هناك في نفس الوقت؟ يا لها من فكرة عجيبة!

- وأي عجب في هذا؟ كثير من الناس يفعلون ذلك في هذه الأيام. لماذا لا يكون بيننا جميعاً نوع من الصداقة؟ هذا يجعل الأمور أكثر يسراً. أنت نفسك قلت ذلك منذ أيام.

- أنا؟

- نعم، ألا تذكرين؟ كنا نتحدث عن السيد هاوس وعن الصداقة العجيبة بين زوجته الحالية وزوجته السابقة، فقلتِ إن هذه هي الطريقة المتحضرة المعقولة في النظر إلى الأمور.

- ولكني لا أعتقد أن أودري تفكر على هذا النحو.

- هراء.

- ليس هراء، أنت تعلم كم كانت أودري تحبك ولا أظن أنها ستطيق رؤيتنا معاً.

- أنت مخطئة يا كاي. إن أودري ترحب بصداقتنا.

نظرت إليه بارتياب فارتبك قليلاً، ثم سعل وقال: الواقع إنني قابلتها بالصدفة أمس في لندن.

- أنت لم تذكر لي ذلك.

- هأنذا أذكره لك. كانت مصادفة بحتة، كنت مارّاً بحديقة الهايد بارك فرأيتها مقبلة نحوي، ولم يكن من اللباقة أن أعرض عنها، أليس كذلك؟

- استمر.

- حييتها وسرنا معاً قليلاً، ثم جلسنا على أحد المقاعد وتحدثنا في أمور مختلفة وسألتني عنك.

- كانت لفتة كريمة.

- تحدثنا عنكِ قليلاً وكانت ظريفة إلى أبعد حد، وخطر لي حينئذٍ أنه ليس ثمة ما يمنع من أن تصبحا صديقتين وأن ننتهز فرصة إقامتنا في قصر كاميللا لتوثيق أواصر هذه الصداقة.

- خطر لك ذلك؟

- نعم، كنت أنا وحدي صاحب الفكرة.

- لكنك لم تذكر لي قط كلمة واحدة عن هذه الفكرة.

- كانت فكرة بنت ساعتها.

- وهل وافقت أودري على فكرتك؟

أحس نيفيل باستيائها وقال: ماذا دهاك أيتها الحبيبة؟

- لا شيء سوى أنك والعزيزة أودري لم تتساءلا عما إذا كنت أوافق على مثل هذه الفكرة الرائعة.

- ولماذا لا توافقين بالله عليك؟ أنت نفسك قلت منذ أيام إن...

- انسَ ما قلت، لقد كنت أتكلم عن أناس آخرين لا عن أنفسنا.

- إذا كنت لا توافقين بسبب الغيرة فإن الطرف الآخر هو صاحب الحق في أن يغار. ولا تنسي أننا عاملنا أودري بقسوة. كلا، أنا لا أعنيك أنت، أعني أنني قد عاملتها بقسوة. فإذا استطعنا أن نكسب صداقتها فإنني أصبح أنعم بالاً وأطيب نفساً.

- هل أفهم من ذلك أنك لم تكن ناعم البال منذ تزوجتني؟

- ماذا تعنين أيتها الحبيبة الحمقاء؟ على العكس، كنت أسعد إنسان في الوجود ولكن...

- دائماً كلمة «ولكن»!

- أصغي إليّ يا كاي، هل تغارين من أودري؟

- أنا لا أغار منها ولكني أخشاها. أنت لا تعرف أودري يا نيفيل.

- كيف لا أعرفها وقد عاشرتها ثمانية أعوام؟

- أؤكد لك أنك لا تعرفها.

* * *

٣٠ نيسان (أبريل)

صاحت الليدي تريسيليان (التي يدعوها المقربون إليها باسم كاميللا): هذا غير معقول! لا بد من أن نيفيل قد جن.

قالت ماري إيلدن: الحق إنها فكرة عجيبة.

كان للّيدي تريسيليان أنف مقوس طويل تعرف كيف تنظر من فوقه بأنفة وكبرياء لتحقير محدثها عندما تريد، وعلى الرغم من أنها قد تجاوزت السبعين وأدركها الضعف والوهن فإنها ظلت محتفظة بكل قواها العقلية ونشاطها الذهني. صحيح أنها كانت تتقوقع أحياناً وتعتزل الناس وتقضي في فراشها فترات طويلة، إلاّ أنها كانت تعود دائماً إلى الحياة بعقل أوفر نشاطاً ولسان أكثر ذلاقة. أما ماري إيلدن، قريبتها التي تقيم معها وتعنى بها، فكانت في السادسة والثلاثين من عمرها. كان لها وجه أملس ناعم من تلك الوجوه التي تحتفظ بشبابها ورونقها رغم مرور السنين، وشعر أسود غزير تطل منه خصلة بيضاء نمت فوق جبينها منذ الصبا فأكسبتها سيماء مميزة.

قدمت الليدي تريسيليان إلى ماري إيلدن الرسالة التي

وردت إليها من نيفيل ستيرنج، فقرأتها بعناية وعقبت عليها بقولها: إنها فكرة غريبة حقاً.

قالت الليدي: لا أعتقد أنها فكرة نيفيل. لا بد أن أحدهم قد أوحى بها إليه، وقد تكون زوجته الجديدة هي صاحبة الفكرة.

- تعنين كاي؟ أتظنين أنها فكرتها؟

- طبعاً. إنها فكرة جديدة ومبتذلة... الزوجة الجديدة والزوجة القديمة صديقتان؟!

- حقاً لقد أهدر الناس المثل والتقاليد.

- أعتقد أنها وجهة نظر عصرية وأسلوبٌ حديثٌ من أساليب التعامل بين الناس.

- لن أسمح بشيء كهذا في بيتي. حسبي أنني وافقت أن أستضيف تلك الدمية الملونة.

- إنها زوجة نيفيل.

- ذلك هو السبب في أنني وافقت على قدومها إلى هذا البيت، فقد كان زوجي يحب نيفيل ويود أن يشعره بأن البيت بيته، وقد خشيت إذا رفضت استقبال زوجته أن تحل القطيعة بيننا محل المودة. إنني لا أحب هذه المرأة، فهي لا أصل لها ولا جذور وليست جديرة بأن تكون زوجة لنيفيل.

- يقال إنها من أسرة كريمة.

- بل إنها من أصل وضيع. لقد طُرد أبوها من جميع الأندية بسبب الغش في اللعب، ومن حسن حظه أنه مات عقب ذلك مباشرة. أما أمها فكانت لها شهرة معينة في الريفيرا، وقد عاشت هي كل حياتها في الفنادق ثم قابلت نيفيل في إحدى مباريات التنس فقررت أن تقتنصه، ولم يهدأ لها بال حتى جعلته يترك زوجته. إنها الملومة في كل ما حدث.

- ونيفيل؟ إنه يستحق اللوم أيضاً.

- طبعاً، كانت له زوجة فاتنة مخلصة فتخلى عنها، ولكني ما زلت مقتنعة بأنه لولا هذه المرأة اللعوب لعاد نيفيل إلى صوابه.

- كان الموقف عسيراً من جميع الوجوه.

- نعم، إن الإنسان يحتار ماذا يفعل في مثل هذه الظروف. كان زوجي يحب أودري كما أحبها، وليس من ينكر أنها كانت نعم الزوجة لنيفيل. الشيء الوحيد الذي يؤسَف له أنها لم تكن تشاطره هواياته الرياضية، ولكنها كانت دائماً رقيقة ضعيفة البنية. إن الأمر كله يدعو إلى الرثاء، وفي صباي لم يكن يحدث شيء من ذلك. كان للرجال مغامراتهم بطبيعة الحال، ولكن لم يكن يسمح لهم بهدم حياتهم الزوجية مهما كانت الأسباب.

- ولكن ذلك مسموح به في هذه الأيام.

- هذا صحيح. إنك إنسانة واقعية يا ماري، فلا جدوى من الحديث عن أيام مضت. في هذه الأيام تستطيع فتاة لعوب

مثل كاي أن تخطف زوج امرأة أخرى دون أن يلومها أحد.

- لا يلومها إلاّ من كان مثلك يا كاميللا.

- أنا لست في العير ولا في النفير. ومخلوقة مثل كاي لا يهمها أن أقر سلوكها أو لا أقره، إنها مشغولة دائماً بلهوها وعبثها. ولكن لا مانع لديّ من أن يحضرها نيفيل معه ولا من أن أستقبل أصدقاءها، وإن كنت لا أميل إلى ذلك الشاب الرقيع الذي يحوم دائماً حولها. ما اسم ذلك الشاب؟

- تعنين إدوارد لاتيمر؟

- نعم، إنه صديقها منذ أيام الريفيرا، ولست أعلم من أين له المال للحياة التي يحياها.

- لعله يعيش بمواهبه.

- أعتقد أنه يستثمر وسامته، ولكني لا أراه الصديق المناسب لزوجة نيفيل. لقد ضايقني أنه جاء في الصيف الماضي وأقام في فندق إيترهيد ليكون على مقربة منها.

نهضت ماري إيلدن ووقفت أمام النافذة. كان بيت الليدي تريسيليان يقع فوق ربوة تطل على نهر تيرن، وعلى الضفة الأخرى للنهر كان يوجد خليج إيسترهيد بشواطئه الرملية التي أصبحت أخيراً قبلة للمصطافين وأقيمت عليها طائفة من الأكواخ وفندق كبير يطل على البحر من ناحية وعلى قرية سولتكريك من ناحية أخرى. وسولتكريك قرية صغيرة تقع أسفل الربوة التي ينهض فوقها قصر الليدي تريسيليان ويعمل

كل أهلها تقريباً في صيد السمك.

كان السير ماتيو تريسيليان من هواة الملاحة، وقد ابتاع هذا القصر منذ نحو ثلاثين عاماً، ثم حدث منذ تسعة أعوام أن انقلب به قاربه فغرق في البحر أمام عيني زوجته. وكان من المتوقع بعد هذه الكارثة أن تبيع الليدي القصر وترحل عن سولتكريك، ولكنها لم تفعل وظلت تقيم في القصر، وكان كل ما فعلته أنها تخلصت من جميع قوارب زوجها فأصبح يتعين على ضيوفها أن يسيروا على أقدامهم حتى المرفأ، وهناك يستأجرون قارباً يقلهم عبر النهر في أضيق نقطة من مجراه.

* * *

قالت ماري بعد تردد قصير: هل أكتب إلى نيفيل لأنبئه بأن ما يقترحه لا يتفق مع وجهة نظرك؟

فقالت الليدي تريسيليان: ليس لديّ أي اعتراض على زيارة أودري، فقد اعتادت القدوم في شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام، ولذلك لن أطالبها بتغيير برنامجها.

- يقول نيفيل في رسالته إن أودري توافق على رأيه ولا تمانع في مقابلة كاي.

- لا أصدق ذلك. إن نيفيل، مثل غيره من الرجال، يؤمن بكل ما يريد الإيمان به.

- لكنه يؤكد أنه تحدث إلى أودري وأنها قد وافقت.

- أعتقد أنه يشعر بأنه قد أساء التصرف ويريد الآن أن

يريح ضميره. لا بد أنه ألحّ على أودري إلحاحاً شديداً حتى انتزع موافقتها على لقاء كاي. لقد أصيبت بانهيار تام عقب الطلاق ولاذت ببيت عمتها السيدة رويد وصارت شبحاً من فرط الهزال، ولكنها استردت صحتها أخيراً وعادت إلى سابق عهدها، ولا يمكنني أن أصدق أنها قد وافقت راضية على بعث ذكريات الماضي. أصغي إليّ يا ماريان، غداً هو أول شهر أيار (مايو) وبعد ثلاثة أيام ستكون أودري في ضيافة آل دارلنجتون في إيسبانك التي لا تبعد عن هنا أكثر من عشرين ميلاً، اكتبي إليها واطلبي منها أن تأتي لتناول الغداء معنا هنا.

* * *

٥ أيار (مايو)

أعلنت الخادمة قدوم أودري. واجتازت أودري الغرفة الفسيحة التي ترقد الليدي تريسيليان على فراش كبير في أحد أركانها وانحنت فوق السيدة العجوز وقبلتها، ثم جلست على مقعد بجوار الفراش.

قالت الليدي: كم أنا سعيدة بلقائك أيتها العزيزة.

كانت أودري متوسطة القامة، ذهبية الشعر، شاحبة اللون، لها وجه دقيق القسمات تطل منه عينان واسعتان لونهما رمادي، وكانت من الرقة بحيث يخيل للناظر إليها أنها مجرد شبح، لكن صوتها كان صافياً جميلاً وله رنين محبب كرنين جرس من الفضة. دار الحديث بين المرأتين حول بعض أصدقائهما إلى أن قالت الليدي تريسيليان: لقد دعوتك أيتها

العزيزة لكي أراك أولاً، ثم لكي أقول لك إنني تلقيت من نيفيل رسالة عجيبة.

فنظرت إليها أودري بعينيها الصافيتين وقالت في هدوء: أحقاً؟

- لقد اقترح في رسالته أمراً لا يقبله عقل. قال إنه يريد أن تتوثق أواصر الصداقة بينك وبين كاي وإنك قد وافقت على ذلك.

أجابت أودري بصوتها الهادئ العذب: وهل هذا أمر لا يقبله عقل؟

- أحقاً أنك وافقت أيتها العزيزة؟

صمتت أودري لحظة ثم أجابت: خيّل إليّ أن ذلك لن يضير أحداً.

- أتريدين حقاً لقاء هذه الـ... لقاء كاي؟

- ما دام نيفيل يريد ذلك.

- لا يهمني ما يريده نيفيل، المهم هو هل وافقت أنت؟

احمرّ وجه أودري قليلاً وأجابت: نعم.

- ما دام الأمر كذلك...

ثم استدركت قائلة: إن البيت بيتك وفي استطاعتك القدوم حينما تريدين، أنت ستحضرين في أيلول (سبتمبر) كالعادة، وسيحضر نيفيل وكاي في نفس الشهر. الحق إنني لا أفهم

التطورات الجديدة التي طرأت على الحياة الاجتماعية.

وأغمضت عينيها ولزمت الصمت لحظة، ثم نظرت إلى أودري وقالت: هل أنت واثقة من أن مثل هذا اللقاء لن يؤلمك؟ لقد كنت تحبين نيفيل وأخشى أن ينكأ هذا اللقاء جروحاً اندملت.

قالت أودري بهدوئها المألوف: كل ما كان بيننا قد انتهى تماماً.

فتمددت الليدي في فراشها وأغمضت عينيها مرة أخرى وهي تغمغم: إن نيفيل مغفل، وسوف يندم على أنه قد فكر في الجمع بينكما.

* * *

٢٩ أيار (مايو)

أشعل توماس غليونه وأطل من نافذته على المزارع التي تترامى أمامه بينما كان خادمه يعمل بنشاط في حزم أمتعته. كان يفكر في أنه لن يرى هذه المزارع العزيزة التي عاش فيها خلال السنوات السبع الأخيرة مرة أخرى قبل ستة شهور على الأقل. وفي تلك اللحظة فُتح الباب وأطل منه شريكه آلان دريك وسأله: هل فرغت من حزم حقائبك يا توماس؟

- تقريباً.

- إذن هلم بنا نتناول الشاي أيها العفريت السعيد.

غادر توماس رويد الغرفة ببطء ولحق بشريكه وصديقه في

شرفة البيت. كان رويد قصيراً بديناً يتميز بوجه جامد وعينين قويتي الملاحظة، وقد اشتهر بأنه صامت قليل الكلام حتى أصبح أصدقاؤه يعرفون انطباعاته من طريقة صمته، وكان يعرج قليلاً ويشعر بعجز ذراعه اليمنى نتيجة إصابته في زلزال حدث في الملايو.

قال دريك لصديقه وهو يعد الشاي: متى زرت إنجلترا آخر مرة؟

- منذ سبع أو ثماني سنوات.

- هل خططت لإجازتك وكيف ستقضيها؟

- إلى حدٍّ ما.

- يخيل إليّ أن هناك فتاة في انتظارك.

- لا تكن مغفلاً!

ثم استطرد قائلاً على خلاف عادته في الصمت والإيجاز: أعتقد أنني سأجد كل شيء قد تغير.

فنظر إليه دريك في عجب وقال: لطالما تساءلت لماذا عدلت عن السفر في آخر لحظة في العام الماضي؟

- جاءتني أنباء سيئة.

- آه، تذكرت الآن. لقد جاءك نبأ مصرع أخيك في حادث سيارة.

أطرق توماس برأسه ولم يجب، وفكر دريك في أنه كان

بوسع صديقه مع ذلك أن يسافر، فإن له في إنجلترا أماً وأختاً. وفجأة، تذكر دريك أن صديقه قد ألغى رحلته قبل أن يَرِد إليه نبأ مصرع أخيه. وسأل: هل كانت العلاقة بينك وبين أخيك طيبة؟

- بيني وبين أدريان؟ كانت علاقة عادية وكل منا يسير في طريقه، كان أدريان محامياً.

فكر دريك في الاختلاف الكبير بين الأخوين، فأحدهما صناعته الكلام والثاني لا يتكلم إلاّ بمقدار. سأله: هل لا تزال أمك على قيد الحياة؟

- نعم.

- أعتقد أن لك أختاً أيضاً؟

فهزّ رويد رأسه سلباً وقال: كلا، إنها إحدى قريباتي، وقد نشأت معنا لأنها كانت يتيمة.

- هل هي متزوجة؟

- كانت زوجة للمدعو نيفيل سترينج.

- آه، ذلك الرياضي الذي يلعب التنس والجولف؟

- نعم ولكنهما افترقا بالطلاق.

قال دريك لنفسه: "لا بد أنه قرر العودة إلى إنجلترا ليجرب حظه مع قريبته تلك"! ثم قال ليغير مجرى الحديث: أكبر الظن أنك ستقضي إجازتك في صيد السمك؟

- أفضّل الملاحة في سولتكريك.

- إنها منطقة رائعة، وأنا أعرفها وأعتقد أنه يوجد فيها فندق قديم مشهور.

- نعم، فندق بالمورال. ربما أقيم فيه أو في بيت أصدقاء لي على مقربة منه.

* * *

٢٩ أيار (مايو)

قال السيد تريفز: حقاً إنه أمر يبعث على الضيق. لقد ظللت أتردد على فندق مارين بمنطقة ليهيد طوال خمسة وعشرين عاماً، وها هم الآن يهدمونه بدعوى التوسع وإدخال تعديلات. لماذا لا يدعون فنادق الاصطياف وشأنها؟ لقد كنت دائماً أحب منطقة ليهيد.

فقال رافاس لورد مواسياً: ألا توجد هناك فنادق أخرى يمكنك الإقامة فيها؟

قال السيد تريفز: ما دام فندق مارين قد هدم فلن أذهب إلى ليهيد إطلاقاً. كانت السيدة ماكاي صاحبة فندق مارين تعرف مطالبي واحتياجاتي وكنت أقيم في نفس الغرفة كل عام، ولم يحدث قط أي تغيير في نظام الخدمة وكان الطعام جيداً.

- ما رأيك في منطقة لوتلكريك؟ يوجد هناك فندق جديد معروف باسم فندق بالمورال تشرف عليه سيدة تدعى السيدة

روجرز، وقد كانت تعمل طاهية في قصر اللورد مارنتهيد الذي طالما قدم لضيوفه أشهى أطعمة عرفتها لندن، وقد اقترنت الطاهية بكبير خدم قصر اللورد وأنشأت مع زوجها هذا الفندق الذي يخيّل إليّ أنه يلائمك تماماً، ولسوف تجد فيه الهدوء والراحة والطعام الجيد ولا شيء من موسيقى الجاز التي تزعج العجائز من أمثالنا.

- هل توجد في هذا الفندق شرفة مسقوفة؟

- نعم، توجد شرفة واسعة مسقوفة تجد فيها الشمس والظل على السواء، وأستطيع أن أقدمك إلى بعض الشخصيات التي تقيم بالمنطقة، كالليدي تريسيليان التي تمتلك قصراً هناك، وهي سيدة ظريفة رغم أنها قلما تبرح فراشها.

- الليدي تريسيليان؟ أرملة القاضي السير ماتيو تريسيليان؟

- نعم.

- كنت أعرف السير ماتيو، وأعتقد أنني قد قابلت زوجته في بعض المناسبات. كان ذلك منذ وقت طويل مضى. سولتركريك تقع بالقرب من سانت لو، أليس كذلك؟ إن لي أصدقاء كثيرين في المنقطة. أعتقد أن فكرتك صائبة يا رافاس، سأكتب الآن إلى فندق بالمورال في طلب بعض التفصيلات، أريد أن أقيم هناك شهراً من منتصف آب (أغسطس) إلى منتصف أيلول (سبتمبر)، هل توجد في الفندق حظيرة للسيارات ومكان لإيواء السائق؟

- طبعاً، إنه فندق كبير يدار بأحدث الأساليب العصرية.

- وهل فيه مصعد؟ أنت تعلم أنني لا أستطيع الصعود إلى

الطوابق العليا.

- أظن أنّ به مصعداً.

- ذلك ينهي مشكلتي تماماً، وسوف يسرني أن أجدد معرفتي بالليدي تريسيليان.

* * *

٢٨ تموز (يوليو)

كانت كاي سترينج ترتدي بنطالاً وقميصاً برتقالي اللون وحذاء خفيفاً، وكانت تراقب زوجها باهتمام وهو يلاعب الشاب ميريك في المباراة النهائية لفردي الرجال في دورة ألعاب التنس التي أقيمت في سانت لو. كان المفهوم أن ميريك هو أقوى المرشحين لبطولة الدورة، فقد كانت ضرباته من البراعة بحيث لا يمكن صدها، ولكن نيفيل كان يمتاز بالخبرة والجلد، وأسفرت الجولة السادسة بين الفريقين عن التعادل ٣-٣. كان إدوارد لاتيمر يجلس بجوار كاي ويشهد المباراة بقلة اكتراث فقال ساخراً: الزوجة الوفية ترقب زوجها المحبوب وهو يشق طريقه إلى النصر!

كان لاتيمر في الخامسة والعشرين من عمره، وسيماً إلى حد يلفت إليه الأنظار، وله عينان أقوى تعبيراً من لسانه وصوت يعرف صاحبه كيف يتحكم في نبراته كأعظم ممثل. وقد عرفت كاي صديقها هذا منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها، فكانا يصيّفان في نفس المصيف كل عام ويلعبان التنس معاً، وتطورت الصداقة بينهما مع الأيام إلى شبه تحالف.

قال إدوارد: إن نيفيل يستخدم ظاهر يده خيراً مما يستخدم باطنها.

وانتهى الشوط السابع بفوز نيفيل، وبدأ ميريك يفقد أعصابه ويرسل الكرة حيثما اتفق، وانتهى الشوط الثامن بفوز نيفيل ٥-٣. ثم تمالك ميريك نفسه وأخذ يلعب بحذر شديد وغيّر سرعته وضرباته ولم يلبث أن تعادل مع غريمه، وحينئذٍ قال لاتيمر: يبدو أنها ستكون مباراة حامية. وقد حمى وطيس المباراة فعلاً وانتهت بفوز ميريك ٩-٧، فتقدم نيفيل من الشبكة وصافح غريمه وهو يبتسم فقال لاتيمر: إن للسن حكمه! تسعة عشر عاماً ضد ثلاثة وثلاثين. ولكني أستطيع أن أقول لك يا كاي لماذا لم يصل نيفيل قط إلى مرتبة البطولة، إنه لم يصل إليها لأنه تعود أن يلقى الهزيمة بصدر رحب، فهو لا يتخلى عن خلقه الرياضي ولم أره قط يفقد أعصابه حين يخسر إحدى المباريات.

- ولكنك مع ذلك لا تحبه.

- وكيف أحبه وقد خطف مني فتاتي؟

تعلقت عيناه بعينيها فقالت: أنا لم أكن فتاتك، ثم إنني أحببته فتزوجته.

- على كل حال هو رجل ظريف والجميع يقولون عنه ذلك.

- هل تريد مضايقتي؟

تحولت إليه بحدة وهي تقول ذلك، ولكنه ابتسم فنسيت

غضبها على الفور وابتسمت بدورها. سألها: كيف مضى الصيف؟

- أمضيته في رحلة ممتعة، ولكنني سئمت هذه المباريات.

- كم ستستغرق بعد ذلك؟

- شهراً تقريباً، ولكننا سنذهب بعد ذلك في أيلول (سبتمبر) إلى جالز بوينت حيث نقضي حوالي أسبوعين.

- أما أنا فقد حجزت غرفة بفندق إيسترهيد.

- سنكون أعجب جماعة أظلها سقف واحد، أنا ونيفيل وزوجة نيفيل السابقة ورجل آخر قادم من الملايو ليقضي إجازته في إنجلترا.

فقال لاتيمير ضاحكاً: وأنا في فندق على مقربة منكم.

وعندما قابلت كاي زوجها خارج غرفة الملابس قال لها: أرى أن صديقك قد وصل؟

- من؟ إدوارد؟

- نعم إدوارد، الكلب الأمين.

- ألا تحبه؟

- أنا لا أعبأ به، ولطالما يسرك أن تمسكي بمقوده.

فهزت كتفيها وقاطعته قائلة: أظن أنك تغار منه.

- من إدوارد لاتيمر؟!

- المفهوم أنه شاب جذاب.

- هذا صحيح، ولكنني لا أغار منه. لن أغار حتى ولو مشى في ركابك جيش من المعجبين لسبب بسيط، هو أنك ملك لي.

- ما أشد ثقتك بنفسك!

- ولمَ لا، ألسنا تعبيراً حياً لإرادة القدر؟ القدر وضع كلاً منا في طريق الآخر والقدر جمع بيننا كزوجين. هل تذكرين كيف التقينا في مدينة كانْ ثم كيف رحلت أنا بعد ذلك إلى إستوريل في إسبانيا فإذا بي أجد نفسي فجأة أمام كاي الفاتنة؟ لقد أحسست يومئذٍ أنه القدر وأن لا مفر من النزول على إرادته.

- إنه لم يكن القدر يا أيها العزيز، إنه أنا.

- ماذا تعنين؟

- لقد أُعجبت بك حين رأيتك في كان، ثم سمعتك تقول إنك ذاهب إلى إستوريل فأقنعت أمي بالذهاب إليها، وهكذا وجدتني أمامك هناك.

رمقها نيفيل بنظرة عجيبة وقال بعد صمت طويل: أنت لم تصارحيني بذلك قبل الآن.

- لم أصارحك إشفاقاً عليك من الغرور، ولكني كنت دائماً بارعة في التخطيط وأحياناً أخطط لأهداف بعيدة جداً، إنني لست بلهاء كما وصفتني.

فقال نيفيل بشيء من المرارة: الآن فقط بدأت أفهم المرأة التي تزوجتها.

- هل أنت حانق عليّ يا نيفيل؟

- بالطبع كلا، لماذا أحنق عليك؟

* * *

١٠ آب (أغسطس)

جلس اللورد كورنيللي، ذلك الثري الغريب الأطوار، أمام مكتبه الضخم الذي كان في السنوات الأخيرة مصدر فخره وخيلائه. كان هذا المكتب العظيم قد صنع خصيصاً له وبإرشاداته وكلفه مبلغاً طائلاً، وقد روعي في ديكور الغرفة أن يبرز ضخامة المكتب وفخامته وكانت النتيجة منظراً يبهر الأبصار لا يشوهه سوى وجود اللورد كورنيللي، ذلك التافه القصير القامة الذي انكمش حجمه بالقياس إلى ضخامة المكتب فبدا أشبه بالأقزام!

دخلت سكرتيرة رشيقة يتناسب شعرها الأشقر مع لون الغرفة فسارت على الأرض اللامعة دون أن تحدث صوتاً ووضعت أمام اللورد قصاصة من الورق. نظر اللورد إلى الورقة وغمغم قائلاً: ماكويرتر... ماكويرتر، من هو؟ هل هو على موعد معي؟

أجابت الشقراء بالإيجاب، ففكر اللورد قليلاً ثم لمعت عيناه وهتف: ماكويرتر! طبعاً، دعيه يدخل.

وضحك وأحس براحة نفسية.

* * *

اعتدل اللورد في مقعده وتأمل الزائر بعينيه وتفرس في وجهه العبوس، ثم سأله: هل أنت ماكويرتر؟

فأجاب ماكويرتر وهو منتصب القامة مقطب الجبين: نعم.

- هل كنت تعمل مع هربرت كلاي؟

- نعم.

فضحك اللورد مرة أخرى وقال: أعرف كل شيء عنك. لقد سُحبت رخصة قيادة هربرت كلاي لأنك رفضت أن تشهد بأنه كان يقود سيارته بسرعة ثلاثين كيلومتراً في الساعة، إنه يتميز غيظاً منك!

وواصل الضحك بصوت مرتفع واستطرد قائلاً: لقد روى لي القصة كلها في فندق سافوي وصاح: "لقد حاولت عبثاً أن أقنع الاسكتلندي العنيد بأن يؤيد كلامي"، فهل تعرف ماذا خطر لي عندما سمعت القصة؟

- ليست لديّ أية فكرة.

كان ماكويرتر يتكلم بإيجاز وبشيء من الجفاء، ولكن اللورد لم يقم لذلك وزناً وقال: لقد قلت لنفسي: "هذا هو الرجل الذي أريده، رجل لا يحيد عن الصدق مهما كانت المغريات". أصغِ إليّ يا ماكويرتر، إنك لن تضطر إلى الكذب من أجلي لأنني أعمل في وضح النهار ولا أخفي شيئاً، وقد كنت دائماً أبحث عن أناس أمناء، ولكن ما أقلهم في هذه الدنيا!

ثم كفّ عن الضحك وتفرس في وجه ماكويرتر مرة أخرى وقال: إذا كنت تريد عملاً يا ماكويرتر فلديّ عمل لك.

- إنني أرحب به.

- عندي لك وظيفة هامة لا يجب أن يشغلها سوى رجل أمين يمكن الوثوق به.

وصمت اللورد وانتظر رد ماكويرتر، ولكن هذا لزم الصمت فصاح اللورد: تكلم يا رجل، هل أستطيع الاعتماد عليك؟

فأجاب ماكويرتر بجفاء: طبعاً تستطيع، هل تتوقع مني أن أقول غير ذلك؟

فأعجب اللورد بحديثه وقال: سأسند إليك هذه الوظيفة، فأنت الرجل الذي أريده. هل تعرف أميركا الجنوبية؟

وبدأ يتحدث في التفصيلات، وبعد نصف ساعة كان ماكويرتر في الشارع وهو يعد نفسه المرشح الوحيد لوظيفة هامة ذات مستقبل عظيم. لقد ابتسم له الحظ بعد طول عبوس، أما هو فلم يبتسم رغم أن تفصيلات لقائه مع اللورد كانت تبعث على الضحك. أليس مما يضحك أن تكون شتائم مخدومه السابق وحملته عليه هي جواز المرور إلى عمله الجديد؟ لا شك أنه إنسان حسن الحظ، ولكن ما أهمية ذلك؟ لقد آلى على نفسه أن يعيش ولكن بلا حماسة أو اهتمام. سيعيش ليومه دون أن يلقي ببصره إلى غده. لقد حاول الانتحار منذ سبعة شهور ونجا من الموت بمحض الصدفة، لكنه ليس على استعداد لأن يكرر المحاولة مرة أخرى الآن. إن الإنسان لا يستطيع أن يقتل نفسه لمجرد إحساسه بأن الحياة لم يعد لها معنى ولا قيمة، إنما يقتل الإنسان نفسه حين يبلغ

به اليأس المدى بل ويتجاوزه. لا بد من القشة التي تقصم ظهر البعير. بيد أنه أحس بالارتياح بصفة عامة لأن وظيفته ستبعده عن إنجلترا، ذلك أنه تقرر أن يبحر إلى أمريكا الجنوبية في نهاية شهر أيلول (سبتمبر)، ولذلك كان لا بد له أن يقضي الأسابيع القليلة الباقية في الاستعداد للرحيل والتعرف على تفاصيل عمله الجديد، وسيبقى له قبل الرحيل أسبوع للراحة، فأين يقضيه؟ هل يقضيه في لندن أو خارجها؟

وصح عزمه على أن يقضيه في سولتكريك، في المنطقة التي أقدم فيها على الانتحار. وارتسمت على شفتيه ابتسامة حين خطرت له هذه الفكرة.

* * *

١٩ آب (أغسطس)

قال المفتش باتل بامتعاض: لقد ذهبت إجازتي في مهب الريح.

وأحست السيدة باتل باليأس وخيبة الأمل، ولكن السنوات التي عاشتها كزوجة لمفتش الشرطة علمتها أن تواجه اليأس وخيبة الأمل بشيء من الفلسفة فقالت: لا بد مما ليس منه بد. هل ثمة قضية هامة؟

- بل قضية عادية لا تختلف عن غيرها إلاّ بأنها خاصة بوزارة الخارجية، ولكنها ليست من النوع الذي يستحق أن أنشره في مذكراتي... لو كنت من الحماقة بحيث أكتب أية مذكرات!

- لا بأس في أن نرجئ إجازتنا إذن.

فقاطعها زوجها بحدة: كلا أبداً، اذهبي مع الفتيات إلى برتيلجتون، فقد حجزت شقة هناك منذ شهر آذار (مارس) وحرام أن لا نستفيد منها، أما أنا فسأقضي أسبوعاً مع جيمس بمجرد الانتهاء من هذه القضية.

كان جيمس ليتشن هو ابن أخيه وكان يعمل مفتشاً للشرطة في سولتنجتون، واستطرد باتل قائلاً: سولتنجتون تقع على مقربة من سولتكريك ومن خليج إيسترهيد، وهكذا سوف تتهيأ فرصة للاستمتاع بماء البحر وهوائه.

فتنهدت السيدة باتل وقالت: أكبر الظن أنه سوف يشغلك معه في بعض القضايا.

- لن تكون لديهم قضايا هامة في مثل هذا الفصل من السنة، ويضاف إلى ذلك أن جيمس كفء لمعالجة قضاياه بنفسه.

* * *

الفصل الثالث
الجريمة

-١-

ما أن غادر توماس رويد القطار في محطة سولتنجتون حتى وجد ماري إيلدن في انتظاره. لم يكن يذكرها جيداً ولكنه عرفها حالما رآها، ولاحظ أنها لا تزال كعهده بها حازمة سريعة في حسم الأمور. قالت له وهي تدعوه باسمه الشخصي كما كانت تفعل فيما مضى: كم أنا سعيدة بلقائك بعد كل هذه السنين يا توماس.

- كان كرماً منكم أن توافقوا على إقامتي معكم، وأرجو ألا يكون في ذلك إزعاج لكم.

- على العكس، أنت ستحل بيننا على الرحب والسعة. هل هذه حقائبك؟ دع الحمال يذهب بها إلى السيارة فقد تركتها أمام المحطة.

وُضعت الحقائب في السيارة وجلست ماري أمام عجلة القيادة وجلس توماس بجوارها. وتحركت السيارة ولاحظ توماس أنها تجيد القيادة وتحسن تقدير المسافات.

كانت سولتنجتون تبعد عن سولتكريك نحو سبعة أميال، وما أن خرجت السيارة من المدينة الصغيرة حتى عادت ماري إلى الحديث عن زيارة توماس. قالت له: إن قدومك في هذه الأيام نعمة من السماء، فالأمور في القصر ليست على ما يرام ووجود شخص غريب هو ما نحتاج إليه.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

ألقى هذا السؤال بفتور وبلا حماسة كأنما تأدباً لا بدافع الفضول. وذلك ما كانت تريده ماري، كانت تريد شخصاً تتحدث إليه وتفضل أن يكون هذا الشخص ممن لا يعنيهم ما يحدث في القصر. أجابت: إننا في مأزق حرج. لقد جاءت أودري، هل تعلم ذلك؟

أومأ برأسه علامة الإيجاب، فقالت: وكذلك جاء نيفيل وزوجته.

فرفع توماس حاجبيه وقال بعد لحظة: موقف حرج حقاً، أليس كذلك؟

- نعم، كانت فكرة نيفيل.

- لماذا؟

قلبت كفها في حيرة وأجابت: لعله فعل ذلك تجاوباً مع الأساليب الحديثة التي تقول إن الصداقة والتفاهم بعد انقضاء الصلات الزوجية لا تضير أحداً.

- وماذا عن الزوجة الجديدة؟

- كاي؟ إنها جميلة طبعاً، بل على جانب عظيم من الجمال وصغيرة السن.

- وهل نيفيل يحبها؟

- أظن ذلك، وإن كنت لا أرى بينهما صفة مشتركة فأصدقاؤهما مثلاً...

لم تتم عبارتها، وعند ذلك قال: أظن أنه قابلها في الريفيرا، أليس كذلك؟ أنا لا أعرف عنهما سوى الحقائق القليلة التي سجلتها أمي في رسائلها إليّ.

- نعم، لقد قابلها مرة في مدينة كان، ولكنني ما زلت على يقين من أنه لو تُرك لنفسه في ذلك الوقت لما أسفرت المقابلة عن شيء لأنه كان يحب أودري كما تعلم.

فهزّ رأسه علامة الموافقة ومضت ماري في حديثها: لا أظن أنه كان يريد هدم حياته الزوجية، ولكن الفتاة كانت مصممة فلم يهدأ لها بال حتى حملته على ترك زوجته.

- هل هي مولعة به إلى هذا الحد؟

التقت عيونهما فقالت: أظن ذلك، رغم أن لها صديقاً وسيماً يمشي في ركابها أينما ذهبت، وإنني لأتساءل في بعض الأحيان عما إذا كانت الفتاة تحب نيفيل لشخصه أو لثروته ومركزه. ذلك لأنها فقيرة لا تملك شروى نقير.

احمرّ وجهها قليلاً واستطردت قائلة: ربما كان حديثي مبعثه الحسد، فالفتاة رائعة لحدّ يثير حسد العوانس مثيلاتي.

- لكن ما هو الحرج الذي تعانونه الآن؟

- الحق أنني لا أستطيع تحديده أو توضيحه. لقد استطلعنا رأي أودري في البداية فلم تمانع في مقابلة كاي وكانت لطيفة كالعادة، إنها إنسانة كاملة بكل معنى الكلمة وتعرف كيف تسيطر على نفسها وتتحكم في مشاعرها فلا يستطيع أحد أن يتكهن بما تشعر به أو تفكر فيه، على أنني شخصياً أعتقد أن وجود نيفيل وكاي لا يهمها حقاً.

- ولماذا تهتم؟ لقد انتهى كل ما كان بينها وبين نيفيل منذ ثلاث سنوات.

- لكن هل تنسى من كانت مثلها؟ لقد كانت تحب نيفيل حباً جماً.

- إنها في الثانية والثلاثين من عمرها، وما زال المستقبل فسيحاً أمامها.

- هذا صحيح ولكن انفصالها عن نيفيل كان صدمة لها، وقد أصيبت بانهيار عصبي كما تعلم.

- أعلم ذلك، فقد أنبأتني أمي في رسائلها.

- كان وجود أودري مع أمك في ذلك الوقت من بواعث الترفيه عن أمك نفسها، فقد صرفها عن الحزن والتفكير في مصرع أخيك. كم أسفنا جميعاً عليه!

- مسكين أدريان، كان مولعاً بالسرعة.

صمتت ماري قليلاً ثم قالت فجأة: حدثني يا توماس، هل

تعرف أودري جيداً؟

- أنا لم أرها إلاّ قليلاً في السنوات العشر الأخيرة.

- لكنك كنت تعرفها وهي طفلة. ألم تكن بمثابة أخت لك أنت وأدريان؟

أطرق برأسه علامة الإيجاب، فقالت: هل لاحظت في وقت ما أنها تفتقر إلى الاتزان؟ لا أعني هذا تماماً... أريد أن أقول إنني أشعر أحياناً بأنها ليست طبيعية، إنها لا تبالي بما حولها وتبدو كاملة بطريقة غير مألوفة، لكنني أتساءل أحياناً: ترى ماذا وراء هذا المظهر؟ قد لا يكون هناك ما يستوجب هذا التساؤل وقد أكون متأثرة بالجو الذي يسود القصر هذه الأيام، إنه جو يشد الأعصاب ولذلك قلت لك إن قدومك سيزيل الكثير من التوتر.

* * *

وصلا إلى القصر الذي يقع فوق ربوة تطل على النهر، وهناك قالت ماري: سأذهب بالسيارة إلى الحظيرة التي تقع في الجانب الآخر من القصر.

أقبل هرستال العجوز كبير الخدم فحيا توماس تحية صديق قديم ورحب به قائلاً: كم أنا سعيد برؤيتك بعد كل هذه السنين يا سيد رويد، لقد أفردنا لك الغرفة الشرقية وستجد القوم جميعاً في الحديقة، اللهم إلاّ إذا أردت الذهاب إلى غرفتك أولاً.

فهزّ توماس رأسه ومضى إلى قاعة الاستقبال واجتازها إلى

الباب المؤدي إلى الشرفة، ثم توقف هناك لحظة لكي يراقب القوم دون أن يروه. رأى في الشرفة امرأتين إحداهما تجلس على الحاجز وتنظر إلى النهر والثانية ترقبها من بعيد بعينين كعيني الهرة حين تتربص بفأر. كانت الأولى هي أودري، وأدرك توماس أن الثانية لا بد وأن تكون كاي. لم تكن تعلم أن هناك من يراها ولذلك لم تحاول إخفاء التعبير الذي ارتسم على وجهها، وأيقن توماس من نظرة كاي إلى أودري أنها تمقتها أشد المقت، أما أودري فلم يبدُ عليها أنها تعبأ بكاي أو تشعر بوجودها.

كان توماس قد رأى أودري آخر مرة منذ سبعة أعوام، فراح يتأملها باهتمام ليرى مدى ما طرأ عليها من تغير. كان هناك تغير بلا شك، فقد أصبحت أودري أشد نحولاً وشحوباً ورقة، ولكن لا أثر على وجهها لتجاعيد الهم والحزن كما كان يتوقع. ونظر إلى المرأة الأخرى، إلى الفتاة التي اتخذها نيفيل زوجة له. كانت جميلة حقاً وخطيرة أيضاً، حتى إنه قال لنفسه: إنني لا أطمئن على أودري إذا انفردت بها هذه المرأة وبيدها خنجر، ولكن لماذا تمقت أودري؟ لقد انتهى كل ما كان بين أودري ونيفيل.

في تلك اللحظة سمع وقع أقدام ثقيلة تقترب ورأى نيفيل يصعد الدرج المؤدي من الحديقة إلى الشرفة. قال نيفيل وهو يلوح بمجلة في يده: ها هي المجلة المصورة، أما المجلة الأخرى فلم أجدها. وهنا حدث شيئان في نفس اللحظة، إذ قالت كاي: "حسناً، أعطنيها". بينما مدت أودري يدها وهي شاردة الذهن دون أن تحرك رأسها أو تنظر إلى نيفيل. وقف

نيفيل في منتصف المسافة بين المرأتين وظهرت على وجهه دلائل الارتباك، وقبل أن يتكلم صاحت كاي بصوت مشحون بالهستيريا: أعطنيها، أعطنيها يا نيفيل!

دُهشت أودري وحولت رأسها وسحبت يدها وقالت بقليل جداً من الارتباك: أنا آسفة يا نيفيل، لقد ظننتك تتحدث إليّ.

فخطا نيفيل إلى الأمام بسرعة وقدم المجلة لأودري، لكنها ترددت واشتدت حيرتها وهمّت بأن تعتذر عن قبولها. وفي تلك اللحظة دفعت كاي مقعدها إلى الوراء بعنف ونهضت واقفة ودارت على عقبيها وانطلقت نحو الباب الموصل إلى قاعة الاستقبال. كان دخولها مفاجأة لتوماس الذي ما كاد يتراجع خطوة حتى اصطدمت به، وتراجعت كاي ونظرت إليه معتذرة، وحينئذٍ أدرك توماس لماذا لم تره ولماذا ارتطمت به، فقد كانت دموع الغضب تملأ عينيها.

هتفت بصوت مرتجف: من أنت؟ آه، لا شك أنك الرجل القادم من الملايو.

قال توماس: نعم، أنا الرجل القادم من الملايو.

فصاحت: ليتني كنت الآن في الملايو أو في أي مكان آخر غير هذا المكان. إنني أمقت هذا البيت وكل ما فيه ومن فيه.

أزعج هذا الموقف توماس فأطرق برأسه ولم يجب، فقالت: خير لهما أن يكونا على حذر وإلاّ قتلت أحدهما يوماً ما! قالت ذلك وهرولت إلى خارج الغرفة وأغلقت الباب

وراءها بعنف.

جمد توماس في مكانه ولم يدرِ ماذا يفعل، ولكنه أحس بارتياح لانصراف كاي. وفيما هو ينظر إلى الباب الذي توارت كاي وراءه إذا به يسمع وقع أقدام تقترب منه، ورأى نيفيل سترينج. كان نيفيل محتقن الوجه لاهث الأنفاس، فما أن رأى توماس حتى هتف: أهذا أنت يا رويد؟ لم أعلم أنك قد جئت. هل رأيت زوجتي؟

- لقد مرت من هنا منذ لحظة.

هرول نيفيل في أثر زوجته بينما خرج توماس إلى الشرفة. ولم تشعر أودري إلاّ حينما أصبح منها قيد خطوتين، وحينئذٍ وثبت من مكانها فوق حاجز الشرفة وهتفت وهي تبسط إليه ساعديها: توماس، أيها العزيز توماس، كم أنا سعيدة بقدومك!

فأمسك بيدها ورفعها إلى شفتيه.

-٢-

وجد نيفيل زوجته في غرفة نومها. كانا يقيمان في جناح صغير خاص يتألف من غرفتين يصل بينهما باب، وكان مخدع الليدي تريسيليان هو المكان الوحيد في القصر الذي يوجد به فراشان. سمعت كاي وقع أقدامه فرفعت إليه وجهاً مبللاً بالدموع وصاحت في غضب: أخيراً جئت.

- أخيراً جئت يا كاي؟ لم كل هذه الضجة؟

كان يتكلم بهدوء ولكن اختلاجة أنفه كانت تنم عن

غضب مكظوم. وصاحت: لماذا أعطيتها المجلة المصورة ولم تعطنيها؟

- الحق يا كاي أنك ما زلت طفلة. أتحدثين كل هذه الضجة من أجل مجلة مصورة تافهة؟

فقالت بإصرار: لقد قدمتها إليها ولم تقدمها لي.

- وما أهمية ذلك؟

- إنه يهمني.

- الحق أنني لا أدري ماذا دهاك! هل من اللائق أن تتصرفي بهذه الطريقة الهستيرية في بيوت الناس؟ ألا تعرفين كيف ينبغي أن يكون سلوك الإنسان المهذب أمام الآخرين؟

- لماذا أعطيتها المجلة؟

- لأنها كانت تريدها.

- كنت أيضاً أريدها وأنا زوجتك.

- وهذا أدعى إلى إعطاء المجلة للمرأة الأكبر سناً والتي لا تربطنا بها في الواقع أية صلة.

- لقد انتصرت عليّ، طلبت المجلة ونالتها وأنت وقفت في صفها ضدي.

- أنت تتكلمين كطفل غيور أحمق. تمالكي نفسك وحاولي أن يكون سلوكك لائقاً أمام الناس.

- كسلوكها؟

فقال ببرود: إن أودري تعرف كيف تتصرف كسيدة مهذبة على كل حال.

- إنها تثيرك ضدي، إنها تمقتني وتريد أن تنتقم لنفسها.

- ألا تكفيّن عن الهذيان يا كاي؟ لقد سئمت هذه التصرفات.

- إذن هلم بنا نرحل من هنا، لنرحل غداً. إنني أمقت هذا البيت.

- نحن لم نقضِ فيه سوى أربعة أيام.

- إنها تكفي! دعنا نذهب يا نيفيل.

- لقد جئنا لقضاء أسبوعين وسأقضي هنا أسبوعين.

- سوف تأسف على ذلك يا نيفيل، سوف تأسف أنت وأودري لأنك تعتقد أنها امرأة رائعة.

- أنا لا أعتقد أن أودري امرأة رائعة وإنما أعتقد أنها دمثة الخلق وكريمة، وقد عاملتها بقسوة فقابلت ذلك بالصفح والغفران.

قالت وهي تعتدل جالسة في فراشها: إذا ظننت ذلك فأنت مخطئ. إن أودري لم تغفر لك يا نيفيل، لقد رأيتها مرة أو مرتين وهي تنظر إليك خلسة. إنني لا أعرف ما يدور بخلدها لأنها من أولئك الذين لا يدعون الآخرين يعرفون ما يدور بخلدهم.

- مما يؤسف له أنه لا يوجد كثيرون من هذا الطراز.

تغير لون كاي وقالت: أتعنيني بهذا الكلام؟

- أنت لم تحاولي قط السيطرة على مشاعرك. كلما خطر لك خاطر ينم عن الغيظ والحقد سارعت إلى الجهر به، إنك تجعلين من نفسك ومني سخرية للآخرين.

قالت ببرود: هل تريد أن تقول شيئاً آخر؟

أجابها بنفس البرود: يؤسفني أن تظني أنني أتحامل عليك ولكني لم أذكر سوى الحقيقة، أنت لا تسيطرين على مشاعرك أكثر مما يسيطر الطفل.

- أما أنت فإنك لا تغضب أبداً، أنت دائماً هادئ رزين حتى ليخيل إليّ في بعض الأحيان أنك بلا شعور ومجرد سمكة باردة! لماذا لا تطلق العنان لمشاعرك بين وقت وآخر؟ لماذا لا تغضب وتثور في وجهي وتطلب إليّ أن أذهب إلى الجحيم؟

فتنهد نيفيل ونظر إلى السماء مستنجداً، ثم دار على قدميه وغادر الغرفة.

-٣-

قالت الليدي تريسيليان: إنك تبدو تماماً كما كنت في السابعة عشرة من عمرك يا توماس، نفس الوجوم ونفس الصمت، ولكن لماذا؟

- لا أعلم. إنني لم أكن قط متحدثاً بارعاً.

- على عكس أدريان، كان ذلق اللسان سريع الخاطر.

- لعل ذلك هو السبب، فقد كنت أصغي إليه أكثر مما أتكلم.

- مسكين أدريان، كان أمامه مستقبل عظيم.

أطرق توماس برأسه وسارعت الليدي إلى تغيير مجرى الحديث، ولم يكن بالغرفة سواهما فقد اعتادت الليدي أن تقابل ضيوفها فرادى. قالت: لقد جئت منذ أربع وعشرين ساعة، فماذا ترى في الموقف؟

- الموقف؟

- لا تتظاهر بالبلاهة، أنت تعرف جيداً ما أعني. إنني أشير إلى ذلك المثلث الذي استقر بين ظهرانينا.

فقال في حذر: أخشى أن يحدث احتكاك.

- دعني أعترف لك بأنني أجد في الموقف ما يبعث على التسلية! لقد بذلت قصارى جهدي لأحول دون اجتماع هؤلاء الثلاثة هنا، ولكن نيفيل كان عنيداً وأصر على أن يجمع بين زوجتيه وها هو يحصد ما زرع.

- لم أكن أتوقع أن يفعل نيفيل شيئاً كهذا.

- من العجب أن ذلك كان رأيي أيضاً، فهذا عمل لا يقدم عليه رجل له خلق نيفيل وطباعه. إن الرجال يحرصون على تجنب المواقف المحرجة، ولذلك أعتقد أن نيفيل ليس صاحب الفكرة أصلاً. ترى هل هي فكرة أودري؟

- كلا، بتاتاً.

- إنها كذلك. لا يمكن أن تكون فكرة كاي... إلاّ إذا كانت هذه الفتاة ممثلة بارعة.

- يخيّل إليّ أنك لا تحبينها.

- نعم، فأنا أراها فتاة تافهة ضحلة التفكير. ولكنني بدأت أرثي لها، فهي تتخبط وتتصرف دون وعي ولا تعرف أي ملامح تستخدم سوى الغضب والخشونة ونفاد الصبر، وهي أسلحة تحدث أثراً عكسياً في نفس رجل مثل نيفيل.

- أظن أن أودري هي الشخص الوحيد الذي يجد نفسه في مركز دقيق.

حدجته الليدي بنظرة خبيثة وقالت: لقد كنت دائماً تحب أودري، أليس كذلك يا توماس؟

- هبي أنني كنت أحبها.

- وكنت تحبها منذ الطفولة.

أطرق برأسه علامة الإيجاب، فقالت: ثم جاء نيفيل وخطفها منك.

- كنت أعلم دائماً أنه ليس من أمل لي.

- يا لك من انهزامي!

- كانت أودري دائماً تدعوني توماس الطيب.

- بل كانت تدعوك توماس المخلص.

رسمت ذكريات الطفولة على شفتيه ابتسامة سعيدة وغمغم قائلاً: لم أسمع هذا الاسم منذ سنوات عديدة.

فقالت الليدي: إن الإخلاص فضيلة تقدرها المرأة التي مرت بمثل التجارب التي مرت بها أودري، وكل مخلص لا بد في النهاية من أن يجني ثمرات إخلاصه.

- ذلك ما كنت أرجوه عندما جئت إلى هنا.

-٤-

لم تكن فترات الصمت التي تخيم عليهم في غرفة الطعام أمراً غير مألوف، بيد أن صمتهم في ذلك المساء طال أكثر مما ينبغي، وأحست ماري إيلدن بالتوتر والحرج اللذين يسودان جو الغرفة فقالت لتقطع حبل الصمت: لقد دعوت صديقك السيد لاتيمر لتناول طعام العشاء معنا غداً يا كاي.

فقالت كاي: حسناً فعلت.

قال نيفيل: لاتيمر؟ هل هو هنا؟

أجابت كاي: إنه يقيم في فندق إيسترهيد.

فقال نيفيل: إذن يجب أن نتناول العشاء هناك ذات ليلة. متى ينتهي عمل قوارب عبور النهر كل ليلة؟

أجابت ماري: في الساعة الواحدة والنصف صباحاً.

- أظن أنهم يقيمون حفلات في ذلك الفندق؟

قالت كاي: إن أكثر نزلائه تتراوح أعمارهم بين الثمانين والمئة.

- إذن فإن الجو هناك ليس مسلياً لصديقك.

قالت ماري بسرعة: لماذا لا نذهب ذات يوم للسباحة في خليج إيسترهيد؟ الماء هناك دافئ والشاطئ رملي جميل.

قال توماس محدثاً أودري بصوت خافت: كنت أفكر في القيام بنزهة بحرية غداً، فهل تأتين معي؟

- إنني أرحب بمثل هذه النزهة.

قال نيفيل: لنتنزه جميعاً في القوارب غداً.

فقالت له كاي: كنت أظنك ستلعب الجولف غداً.

- ذلك ما كنت أريده فعلاً، ولكن تذكرت أنني لم أكن في لياقتي الكاملة في المدة الأخيرة.

قالت كاي ساخرة: يا لها من مأساة!

لكن نيفيل تقبل سخريتها بصدر رحب وقال ضاحكاً: إن الجولف لعبة حافلة بالمآسي.

وخشيت ماري إيلدن أن يتطور الحوار بين الزوجين إلى تراشق بالألفاظ فقالت بسرعة: هل تلعبين الجولف يا كاي؟

- نعم، ولكنني لا أجيده.

قال نيفيل: إن كاي تستطيع التفوق في هذه اللعبة إذا بذلت بعض الجهد.

التفتت كاي إلى أودري وسألتها: هل لك أية هواية رياضية؟

- إنني أهوى التنس ولكنني لا أجيد اللعب.

وقال توماس: هل ما زلت تعزفين على البيانو يا أودري؟

فهزت رأسها وأجابت: ليس في هذه الأيام.

قال نيفيل: ولكنك كنت بارعة في العزف.

قالت كاي لزوجها: كنت أظن أنك لا تحب الموسيقى يا نيفيل.

- أنا لا أعرف عنها الكثير، ولكني طالما أعجبت ببراعة أودري في العزف على البيانو رغم صغر يديها.

قال ذلك ونظر إلى يدي أودري وهي تضع السكين إلى جانب صحفة الفاكهة، فاحمر وجه أودري وقالت بسرعة: إن يدي صغيرة ولكن خنصري طويل جداً، وأعتقد أنه يساعدني في العزف.

قالت كاي: أنت إذن أنانية، إن طول الخنصر دليل على الأنانية.

فقالت ماري إيلدن: أحقاً؟ لا بد إذن أنني غير أنانية لأن خنصري قصير جداً.

قال توماس رويد وهو ينظر إليها بحدة: أظن أنك لست أنانية أبداً.

فاحمرّ وجهها وقالت بسرعة: لنرَ أينا أكثر إنكاراً لذاته.

لنقارن خناصرنا، إن خنصري أقصر من خنصرك يا كاي ولكن أظن أن توماس يتفوق عليّ.

فقال نيفيل: إنني أتفوق عليكم جميعاً، انظروا.

ومدّ إحدى يديه فقالت كاي: أنت تتفوق بيد واحدة، فإن خنصر يدك اليسرى قصير أما خنصر يدك اليمنى فأطول كثيراً.

سألتها ماري إيلدن: هل تقرئين الكف يا كاي؟

ومدت إليها يدها واستطردت قائلة: قال لي أحد العرافين إنني سأتزوج مرتين وسأرزق بثلاثة أولاد، فإذا صح ذلك فيجب أن أتعجل الزواج.

قالت كاي وهي تنظر في يد ماري: هذه الصلبان الصغيرة تدل على عدد الرحلات لا على عدد الأولاد، أنت ستقومين بثلاث رحلات عبر البحار.

قالت ماري إيلدن: هذا أيضاً بعيد الاحتمال.

فسألها توماس رويد: هل سافرت كثيراً؟

- لا.

كان في صوتها رنة أسف فقال لها: هل تودين السفر؟

- بل إنني أتمناه أكثر من أي شيء آخر.

- هل أقمت مع الليدي تريسيليان مدة طويلة؟

- منذ خمسة عشر عاماً. لقد أقمت معها عقب وفاة أبي،

وقد ظل أبي مريضاً طريح الفراش عدة أعوام قبل وفاته... وصمتت قليلاً ثم أجابت على السؤال الذي أحست بأنه يفكر فيه: أنا في السادسة والثلاثين من عمري، أليس هذا ما أردت معرفته؟

- الواقع أنه يتعذر على من يراك أن يقدر سنك.

- هذه ملاحظة لها حدان.

- أعتقد ذلك، ولكنني لم أتعمدها.

لم يحول عينيه عن وجهها، ولم تشعرها نظراته بالحرج والارتباك. وعندما استقرت عيناه على شعرها رفعت يدها إلى الخصلة البيضاء وقالت: هذه يرجع عهدها إلى أيام الصبا.

فقال ببساطة: إنها تعجبني.

وظل ينظر إليها، فقالت وهي تبتسم: والآن ما حكمك النهائي؟

احمر وجهه وأجاب: أظن أنه لم يكن من الكياسة أن أنظر إليك على هذا النحو، ولكني كنت أود أن أعرفك على حقيقتك.

فنهضت عن المائدة وقالت وهي تسير إلى قاعة الاستقبال متأبطة ساعد أودري: السيد تريفز سيتناول العشاء معنا غداً.

فقال نيفيل: ومن يكون السيد تريفز هذا؟

- إنه محامٍ عجوز يقيم في فندق بالمورال، وقد جاء برسالته تعريف من السيد رافاس لورد، وهو مريض بالقلب

وضعيف البنية ولكنه حاضر البديهة ويعرف كثيراً من الشخصيات الهامة.

-٥-

كان الطعام شهياً والخدمة لا غبار عليها، مما جعل السيد تريفز يغبط الليدي تريسيليان في سره على توفقها مع خدمها، فقد كان كل شيء يجري بنظام رغم مرض صاحبة القصر. دار السيد تريفز ببصره بين الضيوف واستقرت عيناه على الصبية الفاتنة زوجة نيفيل سترينج. كان جمالها يتألق في ضوء الشموع التي تنير قاعة الطعام وهي تدني رأسها بين الفينة والفينة من رأس إدوارد لاتيمر الذي يجلس بجوارها وتضحك في سرور ومرح وتدير البصر فيمن حولها كما تفعل المرأة التي تثق بنفسها وتشعر بأنها سيدة الحفل.

أحس السيد تريفز أمام هذه الفتنة والحيوية المتدفقة بأن دم الشباب يجري في عروقه من جديد، وقال لنفسه: لا عجب إذا كان زوجها قد فقد صوابه وهجر زوجته الأولى.

كانت أودري تجلس بجواره، وقد أحس لأول مرة بأنها سيدة مهذبة على خلق عظيم، ولكنه كان يعلم بخبرته أن هذا النوع من النساء هو الذي يهجر الأزواج. نظر إليها من ركن عينه فرآها مطرقة برأسها تنظر إلى الطبق أمامها دون أن تحرك ساكناً. وتساءل: ترى فيمَ تفكر؟

شرع الضيوف في الانتقال من قاعة الطعام إلى غرفة الاستقبال، وأدارت كاي الجرامافون ليرسل أنغام الموسيقى

فالتفتت ماري إيلدن إلى السيد تريفز وقالت معتذرة: لا شك أنك تكره موسيقى الجاز؟

فقال كاذباً ولكن في أدب: كلا، إطلاقاً.

- سنلعب البريدج ولكن فيما بعد، فإنني أعلم أن الليدي تريسيليان سترسل في طلبك.

كانت كاي تتهادى في وسط الغرفة ولم تلبث أن قالت بلهجة الأمر وعيناها تتألقان: انقل هذه المائدة من هنا يا نيفيل حتى يتهيأ مكان للرقص.

فأطاع نيفيل ونقل المائدة من مكانها ثم تقدم نحو كاي، ولكنها أعرضت عنه عمداً وقالت: تعال يا إدوارد، دعنا نرقص. فخف إليها إدوارد على الفور وأحاط خصرها بساعده، ورقص الاثنان معاً رقصة تناسقت فيها خطواتهما وحركاتهما تناسقاً أثار الإعجاب وحمل السيد تريفز على أن يتمتم قائلاً: ما أروع رقصهما، كأنني بهما من المحترفين.

وسمعته ماري إيلدن فنظرت إلى وجهه المجعد لعلها تفهم ماذا عنى بعبارته، ولكن العجوز كان مستغرقاً في التفكير. قالت لكي تخرجه من صمته: الجو دافئ بالنسبة لهذا الشهر من السنة، أليس كذلك؟

فقال: آه، حقاً. رغم أن المزارعين في هذه المنطقة بحاجة إلى الأمطار، هكذا قيل لي في الفندق.

- هل أنت راضٍ عن الإقامة في فندقك؟

- نعم، رغم أنني تضايقت كثيراً عندما...

ولم يتم عبارته، فقد رأى نيفيل ينهض عن مقعده ويتردد لحظة ثم يقترب من أودري التي كانت تطل من النافذة، وهناك قال لها في أدب وبصوت فاتر: هل ترقصين يا أودري؟ ترددت أودري قليلاً قبل أن تهز رأسها موافقة، وصال الاثنان بضع دقائق، وفجأة قالت أودري وهي تضحك: إن الحر شديد ولا يشجع على الرقص!

وابتعدت عن نيفيل وخرجت إلى الشرفة، فغمغمت ماري إيلدن: اتبعها أيها الغبي. وعلى الرغم من أن صوتها كان خافتاً فقد سمعها السيد تريفز فنظر إليها في دهشة، فارتبكت واحمر وجهها وقالت ضاحكة: كنت أفكر بصوت مرتفع، فإن بطأه يغيظني.

- من تعنين؟ السيد سترينج؟

- كلا، أعني توماس رويد.

وهمّ توماس باللحاق بأودري إلى الشرفة ولكن نيفيل سبقه إليها. أرسل السيد تريفز بصره إلى الشرفة لحظة ثم رده إلى الراقصين وقال: إن السيد لاتيمر راقص بارع. هل هو صديق قديم للسيدة سترينج؟

- نعم

- هل يزاول هذا الشاب الأنيق الوسيم عملاً ما؟

- الحق إنني لا أعلم.

فهز السيد تريفز رأسه مراراً بطريقة لها مغزاها، واستطردت ماري إيلدن قائلة: إنه يقيم بفندق إيسترهيد.

- إن رأسه بارز إلى الخلف على نحو يلفت النظر، ولكنه يحاول أن يحجب هذا البروز بطريقته الخاصة في تصفيف شعره. وصمت قليلاً ثم استطرد قائلاً: آخر رجل رأيت له مثل هذا الرأس حُكم عليه بالأشغال الشاقة لاعتدائه على تاجر مجوهرات عجوز.

- لا شك أنك لا تعني...

فقاطعها قائلاً بسرعة: كلا، على الإطلاق. إنك تسيئين فهمي، فما قصدت التعريض بأحد ضيوفك، إنما أردت أن أقول إن المجرم العتيد والشاب الأنيق الظريف يمكن أن يشتركا في بعض الصفات الجسدية.

فنظرت إليه طويلاً وقالت: أنت تخيفني يا سيد تريفز.

- أحقاً؟ ولماذا يا سيدتي العزيزة؟

- أنت قوي الملاحظة ولا يفوتك شيء.

- الواقع إن عينيّ لم يدركهما ضعف أو وهن، ولا أدري هل ذلك من حسن الحظ أو من سوئه.

- كيف يمكن أن يكون ذلك من سوء الحظ؟

- إن قوة الملاحظة تضع الإنسان أحياناً في موقع المسؤولية حيث يتعذر عليه اتخاذ القرار السليم.

في تلك اللحظة دخل كبير الخدم حاملاً أكواب القهوة فأومأت إليه ماري إيلدن بأن يضعها على إحدى الموائد، وقالت كاي وهي تراقص لاتيمر: سأتناول القهوة بعد الفراغ

من هذه الرقصة.

قالت ماري: سأحمل إلى أودري كوباً. وحملت الكوب وسارت به إلى الشرفة. وتبعها السيد تريفز وأطل من فوق كتفها، فرأى أودري جالسة على حاجز الشرفة وأشعة القمر تضيء وجهها وتبرز جمال تقاطيعه ونبل قسماته. كانت ساكنة صامتة لا تأتي بحركة ولا تنطق بكلمة ونيفيل يتفرس في وجهها عن كثب ولا يحول عينيه عنها، وأخيراً خطا نيفيل خطوة إلى الأمام وبدأ يتكلم. قال: الحق يا أودري إنك...

ولكنها وضعت إصبعها في أذنها ووثبت من مكانها فجأة وهي تقول: قرطي، لقد أضعت قرطي!

- أين؟

وانحنى الاثنان للبحث عن القرط وارتطم رأساهما، وتراجعت أودري على الفور وصاح نيفيل: صبراً لحظة، لقد اشتبك زر كمي بجدائل شعرك. لا تتحركي.

وأخذ يحاول تخليص شعرها من زر الكم، فقالت بعد قليل: أسرع وكن على حذر، إنك تقتلع شعري من جذوره.

- أنا آسف يا أودري.

وفي ضوء القمر الساطع رأت ماري إيلدن والسيد تريفز أن أصابع نيفيل ترتجف بشدة وهو يحاول فصل زر كمه من شعر أودري. وفي تلك اللحظة شق توماس رويد طريقه بين ماري وتريفز ومضى إلى حيث كان نيفيل وأودري وقال: هل تسمحان لي بمساعدتكما؟

فقال نيفيل: شكراً، لقد نجحت أخيراً.

رفعت أودري رأسها وتراجعت قليلاً، ولاحظ توماس أن رجفة مرت بجسدها فقال لها: هل تشعرين بالبرد؟ هلمي إلى الداخل لتتناولي قهوتك.

ورافقها إلى قاعة الاستقبال في اللحظة التي فُتح فيها باب القاعة ودخلت امرأة طويلة القامة ترتدي ثوباً أسود. قالت المرأة باحترام: يسر الليدي تريسيليان أن تستقبل السيد تريفز في غرفتها.

* * *

كان سرور الليدي تريسيليان بلقاء السيد تريفز واضحاً، ولم تمضِ بضع دقائق على اجتماعهما حتى كانا يخوضان معاً في خضم الذكريات، وأخيراً تنهدت الليدي بارتياح وقالت: لقد أمتعني حديثك يا سيد تريفز، فليس أجمل من الحديث عن الماضي وإزالة الغبار عن الفضائح القديمة.

قال تريفز: إن الحديث عن فضائح الناس (وإن يكن خطيئة) إلاّ أنني أعدّه من توابل الحياة.

- بهذه المناسبة يا سيد تريفز، ما رأيك في أنموذجنا الطريف من المثلث الأبدي؟

فنظر إليها في فضول وسأل: أي مثلث؟

- لا تزعم أنك لم تلاحظ شيئاً، إنني أعني نيفيل سترينج وزوجتيه.

- آه، إن السيدة سترينج الجديدة سيدة رائعة الجمال.

- وكذلك أودري.

- نعم، إنها ظريفة.

- هل تريد أن تقول إنك تجد مبرراً لأن يترك الرجل امرأة ذات شخصية نادرة مثل أودري من أجل مخلوقة مثل كاي؟

فأجاب بهدوء: نعم، ذلك يحدث غالباً.

- لو أنني كنت رجلاً لسئمت كاي بعد وقت قصير ولندمت على حماقتي.

- ذلك يحدث غالباً، إن الافتتان الفجائي قلما يعمّر طويلاً.

- ماذا يحدث بعدئذٍ؟

- يحدث عادة أن يحدد كل من الطرفين موقفه، وغالباً يقع الطلاق ويتزوج الرجل للمرة الثانية بامرأة تعطف عليه.

- هراء، إن نيفيل ليس من هواة تعدد الزوجات.

- يحدث أحياناً أن يعود الزوج إلى زوجته الأولى.

فهزت الليدي رأسها وقالت: كلا، إن كبرياء أودري وكرامتها يحولان دون ذلك.

- لقد عرفت من خبراتي أن المرأة تتنكر لكل اعتبارات الكرامة فيما يتصل بالحب، إنها تتشدق بالكرامة ولكنها لا تقيم لها وزناً في تصرفاتها.

- أنت لا تعرف أودري. لقد كانت تحب نيفيل حباً عنيفاً، فلما هجرها من أجل الفتاة (ولست ألومه على ذلك كل اللوم، فقد طاردته الفتاة بإلحاح حتى اقتنصته) أكدت أنها لا تريد أن تراه مرة أخرى.

فسعل السيد تريفز بهدوء وقال: ومع ذلك فإنها قدمت إلى هنا.

- لست أزعم أنني أفهم الأفكار الحديثة، ولكنني أعتقد أن أودري إنما جاءت إلى هنا لكي يعلم الجميع أنها لا تحفل بنيفيل.

- ربما، ولكنني أشعر بأن في الجو قلقاً وتوتراً.

- لا أعرف أحاسيس الأطراف ذات الشأن، ولكني أشعر كأن في هذا القصر برميل بارود يمكن أن ينفجر في أية لحظة.

- دعك من الإسراف في التشاؤم وحدثني، ماذا ينبغي أن أفعل؟ أنا لن أطالب أودري بالرحيل فقد كان سلوكها في هذا الموقف الدقيق سليماً ومهذباً ولا غبار عليه.

- هذا صحيح، ولكن سلوكها رغم استقامته له تأثيره الواضح على نيفيل سترينج.

- إن نيفيل سيء التصرف وسوف أصارحه بذلك. ولكنني لا أستطيع أيضاً أن أطالبه بالرحيل، فقد كان ماتيو يعتبره كابنه.

- أعلم ذلك.

- هل تعلم أن ماتيو مات غرقاً؟

- نعم.

- لقد دُهش الكثيرون لأنني لم أنتقل من هذا القصر بعد وفاة ماتيو، ولكنني في الواقع أشعر بماتيو على مقربة مني هنا. إن القصر مليء به وأنا واثقة من أنني سأشعر بالوحدة والعزلة إذا أقمت في أي مكان آخر. في البداية كنت أرجو أن ألحق به بسرعة، خاصة حين اعتلّت صحتي، ولكن يبدو أنني من أولئك المرضى المؤبدين الذين لا يموتون أبداً.

تنهدت بحزن واستطردت قائلة: كنت أتمنى متى حانت ساعتي أن أرى الموت وجهاً لوجه، لا أن أشعر به يتسلل من ورائي فأهبط إلى درك أدنى عقب كل مرض حتى أصبح عالة على الآخرين.

- أنتِ لست عالة على أحد، الجميع هنا يخلصون لك. هل لديك وصيفة أمينة؟

- لديّ جين باريت، المرأة الطويلة التي استدعتك لمقابلتي. إنها حازمة ومخلصة وقد قضت في خدمتي سنوات عديدة.

- من حسن حظك أن لديك كذلك الآنسة ماري إيلدن.

- أصبت، وأنا سعيدة بوجودها معي.

- هل هي إحدى قريباتك؟

- إنها تنتسب إلى أسرتي من بعيد، ومن أبرز صفاتها إنكار الذات، فهي من أولئك الذين يضحون بحياتهم من أجل

الآخرين. كانت تعنى بأبيها المريض فلما مات رجوتها أن تقيم معي، وإنني أبارك اليوم الذي جاءتني فيه. إنها ذكية ورزينة وواسعة الاطلاع، وفي استطاعتها أن تناقش أي موضوع يطرح للبحث، وهي فضلاً عن ذلك مدبرة من الطراز الأول، تعرف كيف تسوس الخدم دون أن تثير عوامل الخلاف والغيرة بينهم. وإنني لأعجب كيف تستطيع ذلك، لا شك أنها على جانب كبير من الكياسة.

- هل تقيم معك منذ وقت طويل؟

- منذ نحو ثلاثة عشر أو أربعة عشر عاماً.

هنا أطرق السيد تريفز برأسه ونظرت إليه الليدي تريسيليان من ركن عينها خلسة ثم قالت بغتة: ماذا بك؟ هل هناك ما يشغلك؟

- كلا، كنت أفكر في أمر تافه، ولكنك قوية الملاحظة يا سيدتي.

- إنني مولعة بدراسة الناس، وكنت دائماً ألاحظ ماتيو وأعرف ما يدور بخلده.

ثم تنهدت واستلقت على فراشها وقالت: يجب أن أودعك الآن أيها الصديق فإنني متعبة، لكنك أمتعتني بهذا اللقاء وأرجو أن أراك مرة أخرى قريباً.

- ثقي بأنني سأستغل كرم ضيافتك ورحابة صدرك، وكل ما أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بالحديث.

- كلا، كلا إنني دائماً أشعر بالتعب فجأة. هل لك أن تدق الجرس قبل أن تنصرف؟

وأشارت إلى شريط يتدلى فوق الفراش فقال السيد تريفز: هذا النوع من الأجراس عفا عليه الزمن.

- إنني لا أطيق الأجراس الكهربائية فهي سريعة التلف، أما هذا النوع من الأجراس فإنه لا يعطب أبداً، إنني أجذب هذا الشريط فيدق الجرس المتدلي فوق فراش جين باريت فتلبي دعوتي دون إبطاء.

جذب السيد تريفز الشريط وغادر الغرفة، وما كاد يسير بضع خطوات حتى رأى جين باريت تهبط درج السلم مسرعة.

-٦-

عاد تريفز إلى قاعة الاستقبال، وما أن أبصرت به ماري إيلدن حتى اقترحت أن يلعب الجميع البريدج، ولكن المحامي العجوز رفض بأدب بحجة أنه سينصرف بعد قليل. قال: إن أصحاب الفندق الذي أقيم فيه يطالبون النزلاء بالعودة قبل منتصف الليل.

فقال نيفيل: لكن الساعة الآن العاشرة والنصف، هل تتوقع أن يوصدوا باب الفندق قبل عودتك؟

- كلا، بل وأشك في أنهم يوصدونه في أي وقت. إنهم يغلقون الباب وما على القادم إلاّ أن يحرك المقبض ويدخل،

ويخيل إليّ أن أهل هذه المنطقة قوم أمناء.

قالت ماري إيلدن: الواقع ليس من أحد هنا يغلق بابه نهاراً. إن بابنا يظل مفتوحاً طول النهار ولكننا نوصده أثناء الليل.

قال إدوارد لاتيمر: كيف الحال في فندق بالمورال؟ إن مبناه يبدو شديد الكآبة.

فقال تريفز: لكنه يجمع كل وسائل الراحة، أسرّة كبيرة وطعاماً جيداً وخزائن ضخمة وحمامات فسيحة.

قالت ماري إيلدن: أذكر أنك قلت إن شيئاً ما ضايقك عندما ذهبت إلى هذا الفندق.

- الواقع أنني كتبت إليهم طالباً أن يحجزوا لي غرفتين بالطابق الأرضي لأنني مريض بالقلب ومحظور عليّ أن أرتقي الأدراج، وعندما ذهبت إلى الفندق وجدت أن جميع الغرف بالطابق الأرضي مشغولة وأنهم قد حجزوا لي غرفتين بالطابق الثاني، فكدت أحتج وأعود من حيث أتيت ولكني وجدت أن بالفندق مصعداً مريحاً.

قالت كاي: لماذا لا تقيم في فندق بالمورال يا إدوارد لكي تكون أقرب إلينا؟

أجاب الشاب: إنه فندق عتيق ولا أظنه يلائمني.

فقال تريفز: أصبت يا سيد لاتيمر، إنه لا يلائم أمثالك.

فاحمر وجه الشاب وقال: ماذا تعني يا سيدي؟

وأشفقت ماري إيلدن من أن يتطور الحوار بين الرجلين فقالت بسرعة: قرأت أنهم قد اعتقلوا أحد الأشخاص في قضية الحقيبة التي عثر عليها في كنتش تاون وبها جثة فتاة.

فقال نيفيل: هذا ثاني شخص يعتقلونه، وقد ثبتت براءة الأول فأرجو أن يكونوا قد وفقوا إلى الفاعل الحقيقي هذه المرة.

قال السيد تريفز: حتى لو كان هو الفاعل الحقيقي فإنهم لن يستطيعوا اعتقاله طويلاً.

فسأله رويد: لماذا؟ لعدم كفاية الأدلة؟

- نعم.

قالت كاي: إنهم يجدون الأدلة دائماً في النهاية.

قال تريفز: ليس دائماً يا سيدة سترينج، وسوف تذهلين إذا عرفت عدد الأشخاص الذين ارتكبوا جرائم قتل وما زالوا يعيشون أحراراً لا يعترض طريقهم أحد.

- لأن أحداً لا يعرف أنهم الفاعلون؟

- ليس ذلك فقط. وضرب مثلاً بقضية شغلت الرأي العام منذ سنتين فقال: إن الشرطة تعرف الرجل الذي قتل أولئك الأطفال، بل وتعرفه على وجه اليقين ولكنها لا تستطيع حياله شيئاً. لقد شهد شخصان بأن المتهم كان بعيداً عن مكان الجريمة وقت حدوثها، وعلى الرغم من أن الشرطة تعلم أنهما شاهدا زور إلاّ أنها لم تستطع إقامة الدليل على ذلك وما زال القاتل حراً طليقاً.

دق توماس رويد غليونه وقال: هذا يؤيد فكرة مرّت بخاطري، وهي أنه يحق للإنسان في ظروف معينة أن يجعل من نفسه قاضياً وجلاداً وينفذ حكم العدالة بنفسه.

- ماذا تعني يا سيد رويد؟

- هب أنك علمت أن رجلاً ارتكب عملاً يخالف القانون وأن القانون لا يستطيع النيل منه لسبب أو لآخر، أفلا يجوز أن تقتص منه بنفسك؟

- هذا مبدأ شديد الخطورة يا سيد رويد.

- إنني أفترض أن الحقائق ثابتة وأن القانون عاجز.

- هذا لا يبرر أن يقوم الفرد بوظيفة القانون. أعرف قضية...

وصمت لحظة ثم استطرد معتذراً: إنني من هواة علم الجريمة.

قالت كاي: امض في حديثك يا سيد تريفز، ماذا أردت أن تقول؟

- لقد مرّ بي كثير من قضايا الجرائم، كان عدد ضئيل منها جديراً بالاهتمام وسأحدثكم الآن عن إحداها. ثم راح يتكلم ببطء ووضوح فقال: القضية التي سأحدثكم عنها بطلها طفل، ولن أذكر اسمه أو سنه، وإليكم الحقائق: كان طفلان يلعبان بالأقواس والسهام فأطلق أحدهما سهماً أصاب الآخر في مقتل وصرعه على الفور، وجرى تحقيق مع الطفل ولكنه كان في حالة يرثى لها من الحزن بحيث أصبح موضع عطف الجميع.

وصمت السيد تريفز فصاح لاتيمر: وانتهى الأمر؟

- نعم، انتهى الأمر. كان حادثاً يؤسف له وقع قضاء وقدراً ولا حيلة للقانون فيه. لكن كان للقصة وجه آخر، فقد حدث قبل ذلك ببضعة أيام أن كان أحد المزارعين يمر بغابة قريبة فشاهد طفلاً يتدرب على استعمال القوس والسهم.

وصمت تريفز مرة أخرى ليسمح لعقول السامعين باستيعاب هذه الحقيقة، فهتفت ماري: هل تعني أن الحادث لم يكن قضاء وقدراً وإنما كان متعمداً؟

- لا أعلم ولا أستطيع أن أقطع برأي، لقد قيل في التحقيق إن الطفلين لم تكن لهما دراية باستخدام الأقواس والسهام وإن الحادث وقع نتيجة لذلك.

- وما قيل لم يكن صحيحاً؟

- لم يكن صحيحاً بالنسبة لأحد الطفلين على الأقل.

فقالت أودري بصوت خافت: ماذا فعل المزارع؟

- لم يفعل شيئاً، ولست أدري هل أخطأ بذلك أم أصاب. كان مستقبل الطفل المتهم في خطر، ولعل المزارع قد رأى أن من حق الطفل أن يُمنح فرصة الاستفادة من الشك لأنه لم يكن واثقاً من أن الطفل الذي رآه في الغابة هو نفس الطفل المتهم.

قالت أودري: وأنت، هل خامرك أي شك في حقيقة ما حدث فعلاً؟

- أنا شخصياً أعتقد أن الحادث كان جريمة قتل بارعة

دبرت بمهارة وتمّت دراستها جيداً قبل تنفيذها.

- هل كان لها سبب؟

- كان سببها المعاكسات والألفاظ الكريهة التي يتبادلها الأطفال فتثير كراهية بعضهم البعض. إن الكراهية تتولد في نفوس الأطفال بسهولة.

فقالت ماري: ولكن تدبير الجريمة والإصرار على تنفيذها...

- نعم، تدبير الجريمة ونية القتل والتدرب يوماً بعد يوم على إطلاق السهم وإصابة الهدف ثم التظاهر بالحزن واليأس بعد الجريمة، كلها أمور لا يمكن أن يصدقها عقل، ولو أنها طُرحت أمام المحكمة لما صدقتها.

فسألت كاي في فضول: وماذا كان مصير هذا الطفل؟

- بعد الضجة التي أثيرت في الصحف حول القضية رأى أهل الطفل أنه من الأفضل تغيير اسمه. وتمّ لهم ذلك، وقد أصبح الطفل الآن رجلاً ناضجاً يعيش في مكان ما على سطح هذه الأرض. ولكن المسألة الآن هي: هل لا يزال يحتفظ بنزعاته الإجرامية؟

وأطرق السيد تريفز برأسه مفكراً ثم استطرد قائلاً: لقد مضت سنوات عديدة، ولكنني أستطيع التعرف على القاتل الصغير حالما يقع عليه بصري في أي مكان.

فهتف رويد بلهجة من لا يصدق ما سمع: أيمكن هذا؟

أجاب تريفز: نعم، فإن في جسده علامة مميزة. ولكن دعنا من الحديث في هذا الموضوع، إنه ليس من الموضوعات السارة. أظن أنني يجب أن أعود إلى فندقي الآن.

ونهض واقفاً فقالت ماري: ألا تتناول معنا الشاي يا سيد تريفز؟

وكان الشاي على المائدة، فقال توماس رويد: هل لك في كوب منه يا سيد تريفز؟ وأنت يا سيد لاتيمر؟

قالت أودري: أنا متعبة وسأذهب لأنام.

وقالت ماري: وأنا أيضاً. أرجوك العناية بالسيد تريفز يا توماس.

وقالت كاي وهي تتثاءب: أكاد أسقط من الإعياء. طاب مساؤكم.

انصرفت النسوة الثلاث، وقال لاتيمر يحدث السيد تريفز: سأسير معك في نفس الطريق يا سيد تريفز لأنه يؤدي إلى حيث يوجد زورق العبور.

- سوف يسرني أن أكون برفقتك يا سيد لاتيمر.

قضى تريفز اللحظات التالية في شرب الشاي والاستفسار من توماس رويد عن الحياة في الملايو، ولم يلبث لاتيمر أن أحس بالسأم فاستأذن للخروج إلى الشرفة حيث كان نيفيل، فشيعه تريفز ببصره حتى خرج ثم قال: هذا الشاب كثير الحركة ولا يهدأ أبداً، هل هو صديق للسيدة ستارينج؟

فقال رويد مصححاً: بل للسيدة كاي سترينج.

- هذا ما أعنيه، فإنه ليس الطراز الذي ترتضيه السيدة أودري سترينج صديقاً. هل أنت صديق للسيدة أودري يا سيد رويد؟

- نعم.

- لا بد أنها كانت على جانب كبير من الجمال وهي شابة؟

أطرق توماس برأسه ولم يجب، وقال المحامي العجوز: إن وجود الزوجتين تحت سقف واحد يضع أودري في مركز دقيق.

فقال توماس وقد احمر وجهه: بل غاية في الدقة والحرج.

فانحنى تريفز إلى الأمام وقال بحدة: ولماذا جاءت يا سيد رويد؟

- أعتقد أنها... أنها لم تشأ أن ترفض.

- ترفض ماذا؟

- الواقع أنها قد اعتادت القدوم إلى هذا القصر في شهر أيلول (سبتمبر) من كل عام.

- ورغم ذلك أقدمت الليدي تريسيليان على دعوة نيفيل وزوجته الجديدة للإقامة عندها في نفس الشهر؟

- أعتقد أن نيفيل هو الذي طلب ذلك.

- أتعني أنه كان يرغب في هذا اللقاء بين الزوجتين؟

- هذا ما أظنه.

في هذه اللحظة أقبل نيفيل ولاتيمر من الشرفة، فقال تريفز وهو ينهض: أظن أنني يجب أن أنصرف. قال ذلك وارتدى معطفه وودع نيفيل وغادر البيت في طريقه إلى فندق بالمورال وبرفقته إدوارد لاتيمر وتوماس رويد.

كان الفندق يقع على مسافة مئة متر بينما كان مرفأ زورق العبور يبعد نحو ثلاثمئة متر. وفتح تريفز باب الفندق ودخل وتبعه الرجلان. كان البهو معتماً لا يضيئه سوى مصباح واحد صغير، وفجأة أفلتت من تريفز آهة تدل على الضيق، فقد رأى على باب المصعد ورقة كتب عليها: «المصعد معطل».

قال المحامي العجوز: يا إلهي! يجب أن أصعد كل هذه الدرجات!

فقال رويد: ألا يوجد مصعد آخر لنقل البضائع والحقائب؟

- كلا، إنهم يستخدمون هذا المصعد في جميع الأغراض. لا بد من أن أصعد سيراً على قدميّ ولكني سأسير ببطء. طاب مساؤكما.

-٧-

قالت ماري إيلدن: ما أشبه اليوم بأيام الصيف!

كانت تجلس مع أودري على شاطئ البحر أمام شرفة فندق إيسترهيد، بينما كانت كاي مستلقية على وجهها فوق الرمال على بعد خطوات منهما. وسمعت كاي عبارة ماري

إيلدن فاعتدلت جالسة وقالت: ولكن الماء بارد كالثلج.

فقالت ماري: لا تنسي أننا في شهر أيلول (سبتمبر).

- كم أود الآن أن أكون في جنوب فرنسا. إن الجو هناك في مثل هذا الوقت من السنة دافئ تماماً.

قال إدوارد لاتيمر وهو يعبث بالرمال: إن الشمس في إنجلترا ليست شمساً على الإطلاق.

قالت ماري: ألا تنوي النزول إلى الماء يا سيد لاتيمر؟

فضحكت كاي وقالت: إن إدوارد لا ينزل أبداً إلى الماء. إنه يحب الاستلقاء تحت أشعة الشمس كالثعبان. ثم نهضت وهي تقول: أشعر بالبرد، هلم بنا يا إدوارد.

وابتعدا معاً فقالت ماري وهي تشيعهما ببصرها: كالثعبان حقاً!

فسألتها أودري: أهذا رأيك فيه؟

فلم تجبها ماري وقالت وهي ترقب كاي وإدوارد: لقد خلق كل منها للآخر، إنهما يحبان نفس الأشياء ولهما نفس الآراء ويتكلمان بنفس الأسلوب. إن من بواعث الأسف حقاً أن...

وكفت عن الكلام، فسألتها أودري بحدة: أن ماذا؟

- أن نيفيل قد قابلها.

فاعتدلت أودري في جلستها ورمقتها بنظرة صارمة،

فاستدركت ماري على الفور قائلة: أنا آسفة يا أودري، ما كان يجب أن أقول ذلك.

- أرجوك ألا تخوضي في هذا الموضوع مرة أخرى.

- أنا آسفة حقاً، ولكني كنت أظن أن الأزمة انتهت وأنكِ قد تغلبت عليها.

- أؤكد لك أنه لم تكن هناك أية أزمة وأن الموضوع لم يترك في نفسي أي أثر. إنني أتمنى لنيفيل وكاي كل التوفيق والسعادة.

ومرت بجسدها رعدة فسألتها ماري: هل تشعرين بالبرد؟

- نعم.

قالت ذلك ونهضت، وبقيت ماري وحدها فتمددت على الرمال وأغمضت عينيها.

كانوا جميعاً قد قضوا يوماً ممتعاً على الشاطئ وتناولوا طعام الغداء في الفندق الذي كان يعج بالنزلاء رغم انصراف الصيف، وشعروا بلذة الراحة والاسترخاء بعيداً عن القصر والجو المشحون بعوامل القلق والتوتر.

* * *

انتهت ماري إيلدن من تأملاتها على حركة بالقرب منها فرفعت رأسها ورأت إدوارد لاتيمر يلقي بنفسه على الرمال بجوارها، فسألته: ماذا فعلت بكاي؟

فأجابها بإيجاز: أخذها صاحبها الشرعي.

كان في صوته ولهجته ما جعلها تعتدل جالسة وترسل بصرها إلى حيث كان نيفيل وكاي يسيران الهوينا على حافة الماء، ثم نظرت بسرعة إلى إدوارد. كانت الصورة التي انطبعت في ذهنها عنه أنه شاب منحرف غريب الأطوار، ولكنها أحست الآن بأنها أمام إنسان جريح موتور فقالت لنفسها: لا شك أنه كان مولعاً بكاي ثم جاء نيفيل فانتزعها منه.

قالت له بلطف: أرجو أن تكون قد استمتعت بإقامتك هنا.

كانت عبارتها عادية مألوفة، ولكن صوتها كان رقيقاً ودوداً وينطوي على دعوة إلى التفاهم والصداقة، فاستجاب الشاب للدعوة وقال: ليس أكثر مما لو أقمت في أي مكان آخر.

- أنا آسفة.

- ولماذا الأسف؟ وماذا يهمك من أمر إنسان غريب عن بيئتكم؟

أحست بما في إجابته من مرارة وتفرست طويلاً في وجهه الوسيم وقالت: أرى أنك لا تحبنا.

فضحك ضحكة قصيرة وأجاب: وهل كنت تتوقعين أن أحبكم؟

- كنت أظن أننا قد رحبنا بك وأكرمنا وفادتك كصديق لكاي.

فقال ساخراً: نعم، كصديق لكاي.

- هل لك أن تحدثني بصراحة: لماذا تمقتنا؟ ماذا فعلنا؟ وما عيبنا؟

- عيبكم الحذلقة. إنكم تنعمون بكل لذة في الحياة كأنها حقكم الموروث وتنظرون إلى أمثالي نظرتكم إلى حيوان خارج الحظيرة.

- قد يكون في سلوكنا ما يستوجب النقد، ولكننا في الواقع لسنا من الرداءة كما تتصور، وسأضرب لك مثلاً بنفسي. فأنا في هذه اللحظة أشعر بأشد الأسف لأنك تعس وأتمنى أن أفعل أي شيء للترفيه عنك.

- جميل أن يكون هذا شعورك.

- هل تحب كاي منذ وقت طويل؟

- منذ وقت طويل جداً. كنت أعتقد ذلك إلى أن جاء نيفيل.

- وهل ما زلت تحبها؟

- أظن أن ذلك واضح.

فصمتت ماري إيلدن لحظة ثم قالت: ألا ترى من الأفضل أن ترحل من هنا؟

- لماذا؟

- لأن وجودك هنا يزيدك ألماً.

- أنت مخلوقة طيبة ولكنك لا تعرفين شيئاً عن الوحوش

التي تتجول حول بيتك. إن أحداثاً هامة قد تقع في القريب العاجل.

فسألته بحدة: أية أحداث تعني؟

- صبراً وسوف ترين.

-٨-

غيرت أودري ثيابها وقصدت إلى الربوة المطلة على البحر حيث كان توماس رويد يجلس فوق صخرة بارزة وغليونه في فمه. أدار توماس رأسه حين شعر باقترابها ولكنه لم يتحرك من مكانه، وجلست أودري بجواره دون أن تنطق بكلمة وساد بينهما صمت عميق مريح كذلك الذي يسود أحياناً بين شخصين يعرف كل منهما الآخر حق المعرفة، وأخيراً قالت أودري وهي ترسل بصرها إلى قصر الليدي تريسيليان (وكان يقع في مواجهة الربوة مباشرة): كم يبدو القصر قريباً.

- نعم، وبوسعنا أن نصل إليه سباحة.

- ليس عندما يكون هناك مد كما هو الحال الآن. كانت لدى الليدي تريسيليان وصيفة مولعة بالسباحة، وقد حاولت مرة أن تعبر هذه المنطقة سباحة فقذفت بها الأمواج إلى مصب النهر ولم تنجُ من الغرق إلاّ بصعوبة.

- لكني لا أرى هنا لافتة تحذر من الخطر.

- إن التيارات الخطيرة ليست في هذا الجانب وإنما في الجانب الآخر حيث يوجد القصر. إن الخطورة هنا من ناحية

عمق الماء تحت الربوة. لقد حاول أحد الشبان في العام الماضي الانتحار بإلقاء نفسه من فوق هذه الصخرة التي نجلس عليها الآن ولكنه ارتطم بشجرة لم يفطن إليها وعلقت ثيابه بأغصانها إلى أن جاء حراس السواحل فأنقذوه.

- مسكين. أنا واثق من أنه لم يشكر منقذيه. إن الإنسان لا يتمالك من الشعور بخيبة الأمل حين يوطن العزم على الخلاص من الحياة ثم يجد أنه قد أُنقذ على الرغم منه.

فتنهدت أودري وقالت: من يدري؟ لعله الآن سعيد لأنه لم يمت.

فنظر إليها من ركن عينه وهي مستغرقة في التأمل والتفكير. ولاحظ طول أهدابها وجمال قسماتها وصغر أذنيها، فذكّره ذلك بشيء فقال: بهذه المناسبة، لقد عثرت على القرط الذي سقط منك ليلة أمس.

وأدخل يده في جيبه وأخرج القرط فقالت أودري: أين وجدته؟ في الشرفة؟

- كلا، كان على مقربة من الدرج.

تناولت القرط، وكان ضخماً بالقياس إلى أذنها الصغيرة فقال توماس: ألا تخلعين القرط حتى وأنت تسبحين؟ ألا تخشين أن تفقديه؟

- إن أقراطي جميعاً من النوع الرخيص، ولكنني لا أحب الظهور بدونها بسبب هذا.

وأشارت إلى أثر جرح قديم في أذنها اليسرى فقال

توماس: آه، هل عضك ذلك الكلب العجوز هنا؟

أومأت أودري برأسها علامة الإيجاب: كنت وأنا طفلة قد أسندت رأسي إلى ظهر الكلب، وكان يعاني من جرح في ساقه فضاق بي ذرعاً وعض أذني.

قال توماس: لكن الأثر الذي تخلف عن العضة لا يكاد يرى.

- ولكني لا أطيق أن يكون بوجهي ما يعيبه.

كان يعرف مدى حرصها على الكمال. كانت هي كلها مثالاً للكمال في كل شيء. قال: أنت أجمل كثيراً من كاي.

- كلا يا توماس. إن كاي جميلة جداً.

- ظاهرياً.

- هل تعني جمال الروح؟

- كلا، بل أعني جمال الهيكل العظمي.

فضحكت أودري، وتشاغل توماس بإشعال غليونه ثم قال بهدوء: ماذا بك يا أودري؟ يخيّل إليّ إن هناك ما يهمك.

- كلا، لا شيء على الإطلاق.

- لا تنظري إلى الوراء يا أودري، فأنت ما زلت في مقتبل العمر والمستقبل أمامك فانظري إلى الغد لا إلى الأمس.

- حدثني يا توماس، هل أبدو في بعض الأحيان غير طبيعية؟

- هراء، إنك...

- ماذا؟

- إنني أفكر فيك دائماً كما كنت قبل الزواج. لماذا اقترنت بنيفيل يا أودري؟

- لأنني أحببته.

- أعلم ذلك، ولكن لماذا أحببته؟

- أظن أنني أحببته لأنه كان إيجابياً وسعيداً وواثقاً من نفسه، وهي صفات كنت أفتقدها في نفسي. ثم لأنه وسيم.

- نعم، كان في نظرك الرجل الإنجليزي المثالي، فهو رياضي ومتواضع ووسيم ويستطيع الحصول على كل ما يريد.

نظرت إليه أودري بحدة وقالت ببطء: أنت تمقته، أليس كذلك؟

فتجنب نظرتها وراح يعيد إشعال غليونه الذي انطفأ ثم قال: هل يدهشك أن أمقته؟ إن له كل الصفات التي أفتقر إليها. إنه يمارس الألعاب الرياضية ويرقص ببراعة ويتحدث بطلاقة، وأنا معقود اللسان مشوه الجسم، ثم إنه تزوج الفتاة الوحيدة التي أحببتها.

أطرقت برأسها ولم تجب، فقال بحدة: أنت تعلمين أنني أحببتك منذ كنت في الخامسة عشرة من عمرك وما زلت أحبك إلى الآن.

فأسكتته بقولها: كلا، ليس الآن.

- ماذا تعنين؟

- أنا الآن أختلف عما كنت قبلاً.

- كيف؟

نهضت وهي تقول: لا أعلم. أنا لست واثقة من نفسي...

ولم تكمل عباراتها، ودارت على عقبيها وانطلقت مسرعة في الطريق إلى الفندق. وفيما هي تثب فوق الصخور إذا بها ترى نيفيل منبطحاً على الأرض أمام بركة ماء بين الصخور، فنظر إليها وابتسم وقال: أهذه أنت يا أودري؟ إنني أراقب السمكات الصغيرة وهي تعبث في الماء.

فجاءت بجانبه وراحت تنظر إلى الماء. وسألها: هل ترينها؟

- نعم.

وفجأة قال: أودري...

- نعم؟

- هل كل شيء بيننا على ما يرام؟

- طبعاً.

قال نيفيل: أنا حريص على أن تقوم بيننا صداقة وطيدة.

ونظر إليها بقلق فقالت: طبعاً، طبعاً.

- أودري...

لكنها نهضت وقالت: إن زوجتك تلوح لك بيدها.

- من؟ كاي؟

- قلت زوجتك.

نهض بدوره ووقف يتفرس في وجهها، ثم قال بصوت خافت: أنت زوجتي يا أودري.

فأشاحت بوجهها ومضت في سبيلها، بينما انطلق نيفيل للحاق بزوجته.

-٩-

عندما وصلوا إلى القصر اقترب هرستال كبير الخدم من ماري إيلدن وقال لها: الليدي تريد مقابلتك فوراً يا آنسة. إنها منزعجة وتريد التحدث إليك.

فهرولت ماري إلى مخدع الليدي تريسيليان، ووجدت السيدة العجوز شاحبة الوجه مضطربة الأعصاب. هتفت الليدي حالما أبصرت بها: كم يسرني أنك عدت أيتها العزيزة. إنني في أشد حالات الحزن والأسى، فقد مات السيد تريفز المسكين.

- مات؟

- نعم، مات فجأة عقب عودته إلى غرفته ليلة أمس، ويبدو أنه لم يتمكن حتى من خلع ثيابه.

- هذا أمر يدعو إلى الأسف حقاً.

- كنت أعلم طبعاً أنه ضعيف الجسم ومريض القلب، فأرجو ألا يكون قد حدث هنا شيء أجهده أو أن يكون قد

تناول طعاماً لا يلائمه.

- كلا، أنا واثقة من أنه لم يحدث شيء من ذلك، وقد لاحظت أنه كان مرحاً وفي حالة نفسية طيبة.

- أنا حزينة جداً، وأرجوك أن تذهبي إلى فندق بالمورال للوقوف على مزيد من التفصيلات والاستفسار من السيدة روجرز صاحبة الفندق عما إذا كان بوسعنا عمل شيء. واسأليها عن موعد تشييع الجنازة.

- سأذهب فوراً لآتيك بالخبر اليقين، ولكن أرجوك ألا تحزني. أنا أعلم أنها صدمة قاسية لكِ ولكن حاولي أن تتقبليها بمزيد من الرضوخ والهدوء.

* * *

عندما هبطت ماري إيلدن إلى قاعة الاستقبال قالت للضيوف: لقد مات السيد تريفز ليلة أمس عقب عودته إلى الفندق.

فهتف نيفيل: مسكين!

وسأل توماس: ماذا أصابه؟

- يبدو أنه قد أُصيب بأزمة قلبية.

فكر توماس قليلاً ثم قال: ترى هل السبب أنه صعد الدرج؟

- نعم، لقد تركته أنا ولاتيمر وهو يهم بصعود الدرج.

- هذه حماقة منه. لماذا لم يستخدم المصعد؟

- كان المصعد معطلاً.

قالت: آه، هذا من سوء حظه. ثم استطردت قائلة: سأنطلق الآن إلى فندق بالمورال، فالليدي تريد أن تعرف ما إذا كان بوسعنا أن نفعل شيئاً.

قال توماس: سأذهب معك.

وسارا في الطريق إلى الفندق، ثم قالت ماري: ترى هل له أقارب يمكن إخطارهم؟

- لا أعلم. هل كان متزوجاً؟

- لا أظن ذلك.

وعندما دخلا الفندق كانت السيدة روجرز تتحدث إلى رجل طويل القامة يناهز الأربعين، وما أن رأى الرجل ماري حتى رفع يده محيياً وقال: طاب مساؤك يا آنسة إيلدن.

أجابت: طاب مساؤك يا دكتور لازنبي. دعني أقدم لك السيد رويد. لقد جئنا من طرف الليدي تريسيليان للاستفسار عما إذا كان بوسعنا عمل شيء.

قالت السيدة روجرز: هذا كرم منكما. تفضلا إلى غرفتي.

انتقلوا جميعاً إلى قاعة استقبال صغيرة أنيقة، وهناك قال الطبيب: هل تناول السيد تريفز طعام العشاء عندكم ليلة أمس؟

- نعم.

- كيف كان يبدو؟ هل كان منفعلاً أو حزيناً؟

- كلا، كان بادي المرح والسرور طول الوقت.

- نعم، هذا أسوأ ما في حالات مرضى القلب، يأتي الموت غالباً فجأة. لقد قرأت قوائم الأدوية التي وصفها لها أطباؤه وهي تدل على أن حالته كانت خطيرة.

قالت السيدة روجرز: لقد كان شديد العناية بنفسه وأعتقد أننا وفرنا له كل وسائل الراحة.

فقال الطبيب بلباقة: أنا واثق من ذلك يا سيدة روجرز، ولا بد أنه أجهد نفسه بطريقة ما.

فقالت ماري: كأن يكون قد صعد الدرج؟

- نعم، ولكنه ما كان ليفعل ذلك وهو يعرف مدى خطورة حالته.

قالت السيدة روجرز: كان يستخدم المصعد ويصر على ذلك بشدة.

- لكن المصعد كان معطلاً ليلة أمس ولذلك...

فقاطعتها السيدة روجرز قائلة في دهشة: إن المصعد كان يعمل طوال ليلة أمس يا آنسة إيلدن.

وهنا سعل توماس رويد وقال: معذرة يا سيدة روجرز، لقد رافقت السيد تريفز إلى هنا وكانت على المصعد لوحة تفيد أنه معطل.

فهتفت السيدة روجرز: هذا غريب! المصعد كان سليماً ولم تكن هناك لوحة كالتي تذكرها. هذا المصعد لم يصب بعطل منذ ثمانية عشر شهراً.

قال الطبيب: ألا يحتمل أن يكون أحد الخدم قد وضع هذه اللوحة بعد الانتهاء من فترة عمله؟

فصاحت السيدة روجرز: إنه مصعد آلي يا دكتور ولا يحتاج إلى شخص لتشغيله، وعلى كل حال سأستفسر من حارس الباب.

وغادرت الغرفة مسرعة وهي تنادي: جو، جو.

نظر الطبيب إلى توماس رويد في دهشة وقال: هل أنت واثق مما قلت يا سيد رويد؟

- تمام الثقة.

عادت السيدة روجرز ومعها حاجب الباب الذي أكد أن المصعد لم يكن به أي عطل في الليلة السابقة، وهنا قال الطبيب إن أحد النزلاء ربما وضع تلك اللوحة على سبيل الدعابة. وانتهى الموضوع عند هذا الحد.

قال الطبيب رداً على أسئلة ماري إيلدن إنه عرف من سائق سيارة السيد تريفز عنوان محامي هذا الأخير واتصل به، ثم ذهب للقاء الليدي تريسيليان لينبئها بما يمكن عمله بشأن تشييع الجنازة. ثم انصرف الطبيب وعادت ماري إيلدن وتوماس رويد إلى القصر، وفي الطريق قالت ماري: هل أنت واثق من أنك رأيت تلك اللوحة يا توماس؟

- أنا ولاتيمر رأيناها.

- هذا عجيب.

-١٠-

كان اليوم التالي هو الثاني عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وقالت ماري إيلدن بصوت كمن يتحدث إلى نفسه: لم يبقَ سوى يومان! وعضت شفتها على الأثر واحمرّ وجهها والتفتت نحو توماس رويد وقالت معتذرة: حقاً لا أدري ماذا دهاني! إنني طوال حياتي لم أتعجل انتهاء زيارة كما أتعجل انتهاء هذه الزيارة. كنا دائماً نرحب بنيفيل وأودري ونستمتع بوجودهما معنا، ولكننا في هذه المرة نشعر كأننا نجلس فوق شحنة من الديناميت يمكن أن تنفجر في أي لحظة، لهذا السبب قلت لنفسي عندما استيقظت هذا الصباح: لم يبق سوى يومان، فإن أودري سترحل يوم الأربعاء وسيرحل نيفيل وكاي يوم الخميس.

قال توماس: وأنا سأرحل يوم الجمعة.

- أنت لست في الحسبان، فقد كنت بمثابة الحصن المنيع ولا أدري ماذا كان في استطاعتي أن أفعل بدونك. وصمتت لحظة ثم استطردت قائلة: لا أفهم لِمَ كل هذا التوتر؟ إن أقصى ما يمكن أن يحدث هو أن يدور حوار عنيف أو أن يثور أحد الأطراف، وهذه أمور مألوفة في كل مجتمع، ولكن المخاوف تتجسم دائماً، وقد انتقلت العدوى إلى الخدم أنفسهم فانفجرت إحدى خادمات المطبخ باكية صباح اليوم وأنذرتنا

بترك العمل بدون سبب، والطاهية متوترة الأعصاب وكذلك هرستال رئيس الخدم، حتى جين باريت نفسها، تلك التي نصفها دائماً بأنها أكثر ثباتاً من بارجة، حتى هذه المرأة القوية قد ظهرت عليها دلائل التوتر العصبي، وكل ذلك بسبب فكرة سخيفة خطرت لنيفيل وجعلته يحاول توثيق أواصر الصداقة بين زوجتيه لكي يريح ضميره.

- والفكرة فشلت تماماً؟

- طبعاً. إن كاي ثائرة وأنا لا أتمالك نفسي من الإحساس بالعطف عليها. هل لاحظت كيف كان نيفيل يتودد إلى أودري ليلة أمس؟ إنه لا يزال يحبها وقد كانت تصرفاته كلها خطأً محزناً.

- كان ينبغي عليه أن يفكر جيداً قبل أن يقدم على الطلاق ثم على الزواج.

- ذلك ما نقوله نحن جميعاً، ولكن ذلك لا يغير من الواقع شيئاً. إنني أرثي له حقاً.

- إن أمثال نيفيل...

- نعم؟

- أولئك الذين على شاكلة نيفيل يتوهمون أن في مقدورهم الظفر بكل ما يريدون، وأنا أعتقد أن قصته مع أودري كانت أول صدمة صادفها في حياته. ها هو الآن يحصد ما زرع، لقد فقد أودري إلى الأبد ولن يستطيع الوصول إليها مرة أخرى مهما حدث.

- أظنك على صواب، ومع ذلك فقد كانت أودري تحبه عندما اقترنت به وكانا سعيدين معاً.

- ولكنها لا تحبه الآن.

تنهدت ماري إيلدن وقالت: من يعلم.

- ثمة شيء آخر. يحسن بنيفيل أن يكون على حذر من كاي، إنها امرأة خطرة ومتى غضبت فإنها لن تقف عند حد.

- على كل حال لم يبقَ إلاّ يومان.

في تلك اللحظة أقبل نيفيل قادماً من البيت وقال: لا أصدق أننا في شهر أيلول (سبتمبر)، فالحر يشتد يوماً بعد يوم حتى لكأننا في المنطقة الاستوائية.

نهض توماس وابتعد دون أن ينطق بكلمة، وقال نيفيل وهو يشيعه ببصره: يخيّل إليّ أنه لا يطيق البقاء معي في مكان واحد.

قالت ماري: ولكنه شاب ظريف.

- إنني أخالفك في هذا الرأي، فهو إنسان ضيق الأفق شديد التشاؤم.

- أظن أنه كان دائماً يرجو أن يقترن بأودري... إلى أن جئت أنت وظفرت بها.

- كان لا بد له من سبع سنوات على الأقل لكي يحزم رأيه ويطلب يدها! وأية فتاة تستطيع الانتظار كل هذه السنين؟

- لعل آماله تتحقق الآن.

- هل تعتقدين أن أودري ترضى بالاقتران برجل عبوس كهذا؟

- أعتقد أنها تميل إليه.

- أنتن معشر النساء أسوأ سماسرة الزواج! لماذا لا تدعيها تنعم بحريتها بعض الوقت؟ ألا تظنين أنها سعيدة بهذه الحرية؟

قالت ببطء: الحق أنني لا أعلم.

- أنا كذلك لا أعلم، وليس هناك من يستطيع أن يسبر غور مشاعرها.

وتريث لحظة ثم استطرد قائلاً: ولكنها مخلوقة نبيلة، وقد كنت مغفلاً حين تركتها.

مضت ماري إلى البيت وهي تقول لنفسها للمرة الثالثة: "لم يبقَ سوى يومان"! أما نيفيل فإنه راح يطوف بالحديقة حتى رأى أودري جالسة فوق جدار منخفض يطل على البحر. وأبصرت به أودري فوثبت من مكانها وأقبلت نحوه وهي تقول: كنت أهم بالعودة إلى البيت فقد حان وقت تناول الشاي.

قالت ذلك بسرعة دون أن تنظر إليه، فسار بجوارها وهو صامت إلى أن اقتربا من الشرفة التي تطل على الحديقة، وحينئذٍ قال: هل أستطيع أن أبوح إليك بشيء يا أودري؟

فأجابت وهي تطبق بأصابعها على حاجز الشرفة: لعل من الأفضل ألا تفعل.

- معنى هذا أنك تعرفين ما أريد أن أقوله.

لم تجب فقال: ما رأيك يا أودري؟ ألا نستطيع أن نصل ما انقطع وأن ننسى ما حدث؟

- بما في ذلك كاي؟

- إن كاي سوف تفهم.

- ماذا تعني؟

- سأصارحها بالحقيقة وأترك الأمر لكرمها، سأقول لها إنك المرأة الوحيدة التي أحببتها.

- لكنك كنت تحب كاي حين تزوجتها.

- وزواجي منها كان أكبر خطأ ارتكبته، إنني...

لكنه كف عن الكلام حين رأى كاي تخرج من باب قاعة الاستقبال وتقبل نحوهما وشرر الغضب يتطاير من عينيها، ثم قالت: يؤسفني أن أفرض نفسي على هذا المشهد المؤثر، ولكن أظن أنه قد آن لي أن أفعل ذلك.

قالت أودري وهي تبتعد: سأخلي لكما الجو.

فصاحت كاي: هل نفثت سمومك وحققت أهدافك؟ سيكون لي شأن معك فيما بعد، أما الآن فسأسوّي الحساب مع نيفيل.

قال نيفيل: أصغي إليّ يا كاي، أودري لا شأن لها بهذا فأنا وحدي الملوم.

- أي رجل أنت بالله عليك؟ تترك زوجتك وتقترن بي،

وتحبني في لحظة وتسأمني في اللحظة التالية، والآن تريد العودة إلى هذه القطة الباهتة التافهة الخادعة؟

- اصمتي يا كاي.

- تكلم، ماذا تريد بالتحديد؟

فأجاب وقد فرّ لونه: أطلقي عليّ أقبح الأسماء والصفات إذا شئت، ولكن ذلك لن يجديك فتيلاً. إنني لا أستطيع الاستمرار معك وقد وضح لي الآن أنني كنت أحب أودري طول الوقت وحبي لك كان ضرباً من الجنون. إنني لا أصلح لك أيتها العزيزة ولن أستطيع إسعادك، ومن الخير لنا أن نضع حداً لخسائرنا وأن نفترق أصدقاء.

سألته في هدوء مصطنع: ماذا تقترح إذن؟

فأجاب دون أن ينظر إليها: أقترح الطلاق بدعوى أنني قد هجرتك.

- لكن الطلاق يتطلب وقتاً.

- سأنتظر.

- وحينما يتم الطلاق بعد عامين أو ثلاثة أعوام، هل ستطلب إلى أودري العزيزة اللطيفة أن تقترن بك مرة أخرى؟

- ذلك إذا وافقت.

فصاحت كاي في حقد: إنها ستوافق فاطمئن، ولكن ماذا سيكون من أمري؟

– ستصبحين حرة وسيكون بوسعك أن تجدي رجلاً أفضل مني، وطبيعي أنني سأرتب لك نفقة كبيرة تفي بكل حاجاتك.

– لا تحاول أن ترشوني. أصغ إليّ يا نيفيل، أنا لن أوافق على الطلاق منك. لقد تزوجتك لأنني أحببتك. وأنا أعرف متى بدأ نفورك مني، لقد بدأ حين صارحتك بأنني تبعتك من مدينة إلى أخرى. كنتَ تعتقد أن القدر هو الذي جمع بيننا فخدش كبرياءك وخيلاءك أن تعلم أنني التي دبرت اجتماعنا، ولكني لا أشعر بالخجل مما فعلت. أنت أحببتني واقترنت بي ولن أدعك تعود إلى تلك القطة الماكرة التي نشبت مخالبها فيك مرة أخرى. إنني أفضل أن أقتلك على أن أتركك تعود إليها، هل سمعت؟ سأقتلك ثم أقتلها!

فأمسك بساعدها بعنف وقال: اصمتي، اصمتي! لا ينبغي أن تحدثي مثل هذه الفضيحة هنا.

– ولم لا؟ سوف ترى، سوف...

ولم تتم عبارتها، فقد أقبل عليهما هرستال في تلك اللحظة وقال بهدوئه المألوف: لقد أُعدّ الشاي بقاعة الاستقبال.

وأفسح لهما الطريق فانتقلا إلى قاعة الاستقبال، وأخذت السحب تتلبد في السماء.

–١١–

بدأت الأمطار تنهمر قبل الساعة السابعة بقليل، ووقف نيفيل بنافذة غرفته وأرسل بصره نحو السماء. لم يكن قد دار

بينه وبين كاي أي حديث عقب تناول الشاي بل حرص كل منهما على تجنب الآخر. وفي المساء تناول الجميع طعام العشاء في جو بالغ الكآبة، فنيفيل شارد الذهن طول الوقت، وكاي متجهمة الوجه رغم إسرافها في طلائه، وأودري جامدة في مكانها كتمثال من الرخام، وماري إيلدن تبذل قصارى جهدها لاجتذاب الضيوف إلى الحديث وتنظر إلى توماس رويد في ضيق لأنه لا يعاونها في مهمتها، حتى هرستال نفسه كان مضطرب الأعصاب ويداه ترتجفان وهو يضع الصحون على المائدة.

وبعد العشاء قال نيفيل: إنني أفكر في الذهاب إلى إيسترهيد لكي ألعب البلياردو مع إدوار لاتيمر.

قالت ماري: في هذه الحالة يحسن بك أن تأخذ مفتاح الباب الخارجي حتى يتسنى لك الدخول إذا عدت في وقت متأخر.

* * *

انتقلوا إلى قاعة الاستقبال حيث تناولوا القهوة وأداروا جهاز الراديو لسماع نشرة الأخبار. كانت كاي لا تتوقف عن التثاؤب منذ أن غادرت قاعة الطعام ولم تلبث أن استأذنت في الانصراف لتأوي إلى فراشها، وأصغى نيفيل إلى نشرة الأخبار وبعض القطع الموسيقية ثم نهض ليذهب إلى إيسترهيد، فسألته ماري: هل ستذهب بالسيارة أم ستعبر النهر بالقارب؟

فأجابها: بل سأعبر النهر بالقارب، إذ لا معنى لقطع خمسة

عشر ميلاً بالسيارة.

- لكن المطر لا يزال ينهمر.

- لا بأس، سأرتدي معطفي. طاب مساؤكم.

لكنه ما كاد يخرج إلى البهو حتى لحق به هرستال وقال له: إن الليدي ترغب في التحدث إليك.

فنظر نيفيل إلى ساعته وكانت قد بلغت العاشرة، فهز كتفيه وقصد إلى غرفة الليدي تريسيليان ودق بابها، وانتظر قليلاً حتى سمع صوتها وهي تصيح: ادخل.

كانت الليدي قد تأهبت للنوم وأطفأت أنوار مخدعها فلم يبقَ مضيئاً سوى المصباح الصغير الذي تستعين به في القراءة. دخل نيفيل وأغلق الباب وراءه، ووضعت الليدي الكتاب الذي كانت تقرؤه جانباً ورمقت نيفيل من فوق نظاراتها بنظرة صارمة وقالت: أريد أن أتحدث إليك يا نيفيل.

فأجاب وهو يبتسم: هأنذا مصغ إليكِ يا سيدتي المديرة.

لكن الليدي لم تبتسم وقالت: ثمة أشياء لا أسمح بها في بيتي يا نيفيل. إنني لا أسترق السمع على أحد، ولكن عندما تصر أنت وزوجتك على الصياح تحت نافذتي فإنني لا أتمالك من سماع ما تقولان، وقد فهمت مما سمعته أنك تفكر في طلاق كاي لكي تقترن مرة أخرى بأودري، وهذا أمر لا ينبغي أن تفعله ولا أريد أن أسمع عنه.

فبدا نيفيل وكأنه يحاول السيطرة على غضبه وقال بإيجاز: إنني أعتذر عن صياحنا تحت نافذتك. أما فيما يتصل بما

ذكرته غير ذلك فإنني أعده من شؤوني الخاصة.

- كلا، إنه ليس من شؤونك الخاصة. لقد استخدمت بيتي للاتصال بأودري، أو أن أودري هي التي...

فقاطعها نيفيل قائلاً: أودري لم تفعل شيئاً في هذا الصدد.

- مهما يكن من أمر يا نيفيل فإن كاي هي زوجتك ولها عليك حقوق ليس بوسعك أن تحرمها منها أو أن تنكرها عليها، وأنا أقول لك بصراحة بأنها مسؤوليتك ويجب أن يكون هذا واضحاً.

خطا نيفيل نحوها خطوة وصاح بصوت مرتفع: لا شأن لك بهذا.

لكنها لم تحفل باحتجاجه ومضت تقول: وأكثر من ذلك فإن أودري ستغادر هذا البيت غداً.

- هذا ما لا يجب أن يحدث، إنني لا أسمح بذلك.

- لا تصرخ في وجهي يا نيفيل.

- قلت لكِ إنني لن أسمح بذلك.

وفي مكان ما من الدهليز سُمع صوت باب يغلق. وذهبت الوصيفة أليس بنتهام إلى الطاهية السيدة سبايسر وقالت لها وهي زائغة البصر بادية الاضطراب: ماذا أفعل يا سيدة سبايسر؟

- ماذا حدث؟

- لقد حملت الشاي إلى الآنسة باريت في غرفتها منذ ساعة ولكنها كانت نائمة فلم أشأ أن أزعجها، ومنذ خمس دقائق ذهبت إليها مرة أخرى لأنها لم تحضر كالعادة لتحمل الشاي إلى الليدي، ولكنها كانت لا تزال مستغرقة في نوم عميق، وعبثاً حاولت أن أوقظها، ولكنني رأيت لون وجهها مخيفاً.

- يا إلهي! هل ماتت؟

- كلا، إنها تتنفس ولكن أنفاسها خافتة متقطعة.

- حسناً، سأذهب إليها بنفسي، وعليك أن تحملي الشاي إلى الليدي.

حملت أليس بنتهام صينية الشاي وانطلقت بها إلى غرفة الليدي وطرقت الباب مرتين، ولما لم تسمع جواباً فتحت الباب ودخلت. وبعد لحظة سُمع صوت سقوط أكواب وأطباق وتهشمها واندفعت أليس بنتهام من مخدع الليدي تريسيليان وراحت تهبط السلم وثباً وهي تصرخ في فزع كما لو كانت قد رأت شبحاً، ووجدت هرستال ينظف البهو فصاحت به: سيد هرستال... لقد دخل اللصوص وقتلوا الليدي. إن في رأسها ثقباً كبيراً والدم في كل مكان.

* * *

الفصل الرابع
التحقيق

-١-

استمتع المفتش باتل بإجازته كل الاستمتاع ولكنه أصيب بخيبة أمل في الأيام الثلاثة الأخيرة حين اضطراب الجو وهطلت الأمطار. كان باتل يتناول طعام الإفطار مع ابن أخيه المفتش ليتشن حين دق جرس التليفون، وتناول ليتشن السماعة وأصغى طويلاً ثم قال: سأحضر فوراً يا سيدي.

ثم وضع السماعة، فقال باتل وقد لاحظ تجهم وجه ابن أخيه: هل ثمة شيء خطير؟

فأجاب ليتشن: جريمة قتل ذهبت ضحيتها الليدي تريسيليان، وهي سيدة عجوز معروفة جيداً في هذه الناحية وتملك ذلك القصر القائم فوق الربوة في سولتكريك.

فأطرق باتل برأسه واستطرد ليتشن قائلاً: سأذهب الآن لمقابلة مدير شرطة المنطقة. إنه صديق الليدي وسننطلق معاً إلى القصر.

وعندما وصل إلى الباب نظر إلى باتل وقال بلهجة المتوسل: هل أستطيع الاعتماد على معونتك في تحقيق هذه القضية يا عماه؟ إنها أول قضية من نوعها بالنسبة إليّ.

- سأعاونك طالما كنت هنا، هل هي قضية سطو وقتل؟

- لا أعلم بعد.

-٢-

بعد نحو نصف ساعة كان الميجور روبرت ميتشل يتحدث إلى ليتشن وعمه بلهجة جدية حيث قال: من الواضح أن الجريمة ارتكبها شخص أو أشخاص من أهل القصر، إذ لا يوجد أي أثر يدل على سطو من الخارج لأن جميع النوافذ والأبواب كانت مغلقة في الصباح. ثم التفت إلى باتل وقال: إذا اتصلت باسكتلانديارد فهل تظن أنهم يوافقون على إعارتك للتحقيق في هذه القضية؟ أنت موجود في المنطقة فعلاً، ثم هناك صلتك العائلية بالمفتش ليتشن، فإذا وافقت فسيكون معنى ذلك إنهاء إجازتك.

قال باتل: لا مانع لديّ يا سيدي، يمكن أن تتصل بالسير إدجار كوتوني مدير اسكتلنديارد. إنه صديقك، أليس كذلك؟

- بلى، وأعتقد أنني أستطيع إقناعه. سأتصل به.

- هل تظن أنها ستكون قضية هامة يا سيدي؟

- مهما يكن أمرها، فإنني لا أريد أن يحدث أي خطأ في سير التحقيق أو في توجيه الاتهام.

-٣-

وقف باتل وليتشن بباب غرفة النوم الفخمة. كان بداخل الغرفة أحد ضباط الشرطة يفحص البصمات على مقبض مضرب للجولف ملوث بالدماء وقد علقت به بعض شعرات بيضاء، بينما انحنى الدكتور لازنبي طبيب شرطة المنطقة فوق جثمان الليدي تريسيليان، وأخيراً اعتدل الطبيب وقال: لقد ضُربت من الأمام بقوة فهشمت الضربة الأولى الرأس وأحدثت الوفاة، ولكن القاتل استمر يضربها للتأكد من القضاء عليها.

فسأله ليتشن: ومتى حدثت الوفاة؟

- بين الساعة العاشرة ومنتصف الليل.

- ألا تستطيع تقريب المدة الزمنية؟

أجاب الطبيب: إذا أخذت جميع العوامل في الاعتبار فإنني لا أستطيع أن أقول سوى أن الجريمة قد وقعت في وقت لا يقل عن الساعة العاشرة ولا يتجاوز منتصف الليل.

- وهل أداة الجريمة هي هذا المضرب؟

- ذلك واضح، ومن حسن الحظ أن القاتل تركه وإلاّ ما أمكن الاستدلال على نوع الأداة التي استخدمت، ولا بد أن يكون القاتل قد وقف إلى يمين الفراش، إذ لا يوجد مكان كافٍ إلى اليسار.

- هل تعتقد أن القاتل كان أعسر؟

- لا أستطيع أن أقطع في ذلك برأي. التفسير الواضح

هو أن القاتل أعسر، ولكن يحتمل أن تكون السيدة قد أدارت رأسها قليلاً إلى اليسار حين همّ القاتل بضربها.

قال باتل في هدوء: لكن هل تستطيع أن تقسم على أن هذا المضرب هو أداة الجريمة؟

- كلا، أستطيع فقط أن أقسم أنه ربما كان أداة الجريمة، على أنني سأقوم بتحليل الدم العالق به للتحقق من أنه من فصيلة دم المجني عليها، وكذلك سأقوم بفحص الشعرات البيضاء.

فقال باتل موافقاً: نعم، يحسن التحقق من هذه الأمور.

- هل ترتاب في كون هذا المضرب هو أداة الجريمة أيها المفتش؟

أجاب باتل: كلا، أنا رجل بسيط أؤمن بما أرى. لقد ضربت المجني عليها بأداة ثقيلة والمضرب ثقيل ثم إنه ملوث بالدم وعليه شعرات بيضاء. دم المجني عليها وشعرها بغير شك، إنه إذن أداة الجريمة.

فسأل ليتشن: هل كانت المجني عليها نائمة حين ضربت؟

فأجاب الطبيب: أظن أنها كانت مستيقظة، فدلائل الدهشة تبدو على وجهها. ورأيي الشخصي أنها لم تكن تتوقع ما حدث فلم تقاوم ولم تشعر بخوف أو هلع، وأكبر الظن أنها كانت قد استيقظت لتوها فلم تدرك ما يحدث أو أنها عرفت في القاتل شخصاً لا يمكن أن يقدم على إيذائها.

- لم يكن مضاء سوى المصباح الصغير بجوار الفراش.

- نعم، ولذلك دلالتان: إما أن تكون السيدة قد شعرت فجأة بدخول أحد فأضاءت المصباح أو أنه كان مضاء قبل وقوع الجريمة.

في تلك اللحظة نهض الضابط جونز أخصائي البصمات وقال وهو يبتسم: إن البصمات واضحة على مقبض المضرب كل الوضوح.

فتنهد ليتشن بارتياح وقال: ذلك ييسر مهمتنا كثيراً.

قال الطبيب: لا شك أنه قاتل ظريف حيث ترك أداة الجريمة وترك بصمات أصابعه، ومن العجب أنه لم يترك بطاقته كذلك!

فقال باتل: لا بد أنه قد فقد صوابه بعد الجريمة.

- ذلك محتمل. سأذهب الآن لفحص المريضة الأخرى.

- أية مريضة؟

- لقد اتصل بي كبير الخدم قبل اكتشاف الجريمة وقال لي إن وصيفة الليدي في حالة غيبوبة تامة.

- ماذا أصابها؟

- لقد تناولت مخدراً قوياً وكانت في حالة سيئة ولكن أعتقد إنها ستنجو.

فغمغم باتل قائلاً: وصيفة الليدي! واستقرت عيناه على شريط الجرس الذي يتدلى فوق وسادة الليدي تريسيليان فقال الطبيب: نعم، لو قد أحست الليدي بخطر لبادرت إلى جذب

هذا الشريط، ولكن دون جدوى فقد كانت الوصيفة في حالة لا تسمح لها بسماع رنين الجرس.

- هل تعني أن الوصيفة خُدّرت عمداً؟ ألم تتعود تعاطي العقاقير المخدرة.

فقال باتل: كلا، لم أجد في غرفتها أثراً لعقاقير مخدرة ولكني وجدت أثر المخدر في كوب شاي تناولته في المساء. لقد تعودت أن تتناول الشاي قبل أن تأوي إلى فراشها.

- لا بد أن يكون القاتل ممن يعرفون طباع أهل البيت جيداً.

تمّ التقاط صور لغرفة النوم والجثة وتسجيل الأبعاد والمساحات، وخلا الجو للمفتش باتل وابن أخيه فقال الأول: الآن يجب أن نحصل على بصمات أصابع أهل البيت جميعاً، ولكن في رفق وأدب ودون إكراه، وستكون النتيجة أحد أمرين: إما أن بصماتهم لا تتفق مع البصمات التي وجدت على المضرب أو أن بصمات أحدهم تتفق معها، وفي هذه الحالة...

- في هذه الحالة نكون قد وضعنا أيدينا على القاتل.

- أو على القاتلة.

فهزّ ليتشن رأسه وقال: كلا، إنها بصمات رجل، إنها أكبر كثيراً من بصمات النساء. ثم إن هذه جريمة لا يرتكبها إلاّ رجل.

- نعم، إنها جريمة وحشية لا يرتكبها إلاّ رجل قوي

وعلى شيء من الغباء. هل تعرف من أهل البيت أحداً تنطبق عليه هاتان الصفتان؟

- لا أعرف أحداً هنا وهم جميعاً الآن في قاعة الطعام.

- هلم بنا إليهم.

ألقى باتل على الجثة نظرة أخيرة وقال وهو يمضي إلى الباب: كانت غنية، أليس كذلك؟ من الذي يرثها؟

فصاح ليتشن: هذا أول ما يجب الاستدلال عليه، فلعله يقودنا إلى معرفة القاتل.

نظر باتل إلى قائمة في يده وراح يقرأ الأسماء: الآنسة ماري إيلدن، السيد رويد، السيد سترينج، السيدة سترينج، السيدة أودري سترينج... كثيرون يحملون اسم سترينج.

- حسب ما فهمت فهؤلاء هم السيد نيفيل سترينج وزوجتاه.

كانت الأسرة مجتمعة حول مائدة الطعام، فنظر المفتش باتل إلى وجوه أفرادها لتقييمهم بطريقته الخاصة. ولو عرفوا رأيه فيهم بعد هذه النظرة لتولتهم الدهشة. كان رأياً متحيزاً بصرف النظر عن المبدأ القانوني الذي يعتبر الناس أبرياء إلى أن تثبت إدانتهم. كان باتل ينظر إلى كل شخص في محيط الجريمة باعتباره قاتلاً، وقد انتقلت عيناه من ماري إيلدن الشاحبة الوجه التي تتصدر المائدة وكأنها تمثال من الحجر إلى توماس رويد الذي يحشو غليونه، فإلى أودري التي تراجعت بمقعدها إلى الوراء وبإحدى يديها كوب قهوة، فنيفيل الذي

جلس مذهولاً وراح يحاول إشعال سيجارته بأصابع مرتجفة، وزوجته كاي التي أسندت مرفقيها إلى المائدة وبدا شحوب وجهها وراء المساحيق والدهون.

قال المفتش باتل لنفسه: إذا كانت هذه هي ماري إيلدن فإنها امرأة قوية الإرادة لا يمكن أن تؤخذ على غرة. أما ذلك الرجل المتجهم الذي يجلس بجوارها فإنه يعاني من مركب نقص ربما بسبب إصابة ساقه بعاهة، وأما المرأة فلا بد أنها إحدى الزوجتين، إنها توشك أن تسقط هلعاً. وهذا الرجل... إنه السيد سترينج. لقد رأيته في مكان ما قبل الآن. إنه متوتر الأعصاب فعلاً ويكاد أن ينهار. أما ذات الشعر الأحمر فإنها امرأة سريعة الانفعال والغضب ولكنها ذكية.

في هذه الأثناء كانت إيلدن تقدم الضيوف إلى المفتش ليتشن وقالت في النهاية: ما حدث كان صدمة شديدة لنا جميعاً، ومن تحصيل الحاصل أن أقول إننا على استعداد لتقديم كل معونة ممكنة.

فقال ليتشن وهو يعرض مضرب الجولف: دعوني أسألكم أولاً: هل يعرف أحدكم شيئاً عن هذا المضرب؟

فصاحت كاي في هلع: هذا مخيف! هل هذا هو...

وأمسكت عن إتمام عبارتها، بينما نهض نيفيل وقال وهو يدور حول المائدة: إنه يبدو وكأنه أحد مضاربي. هل تسمح لي بأن أراه؟

أجاب المفتش: لا مانع الآن من أن تتناوله وتفحصه.

ولم تترك كلمة «الآن» أي أثر في نفوس الحاضرين.

تناول نيفيل المضرب وفحصه وقال: يخيّل إليّ أنه أحد مضاربي ولكني أستطيع أن أتحقق من ذلك بعد لحظة. ثم نظر إلى ليتشن وباتل وقال: تفضلا معي.

وتقدمهما إلى خزانة كبيرة تحت الدرج وفتحها، ودهش باتل حين وجد الخزانة حافلة بمضارب التنس، وتذكر في ذات اللحظة أين رأى نيفيل من قبل. قال: لقد رأيتك تلعب التنس في ويمبلدون يا سيدي.

- آه، أحقاً؟

وراح يخرج مضارب التنس إلى أن تكشفت له حقيبتان في قاع الخزانة مليئتان بمضارب الجولف ثم قال: لا يوجد هنا من يلعب الجولف سواي أنا وزوجتي والمضرب الذي بيدك هو من النوع الذي يستخدمه الرجال. نعم، إنه مضربي. ثم استطرد نيفيل: ما يدهشني هو أن شيئاً لم يفقد من البيت وأنه لا يوجد ما يدل على أن هناك من حاول الدخول عنوة، أما الخدم فإنهم جميعاً فوق الشبهات.

فقال ليتشن: سوف أتحدث إلى الآنسة إيلدن بشأن الخدم، أما الآن فإنني أرجو أن تذكر لي اسم محامي الليدي تريسيليان إن أمكن.

- إنه السيد تريلوني ومكتبه في سان لو.

- شكراً لك يا سيد سترينج. سوف نستفسر من السيد تريلوني عن ثروة الليدي.

- تعني أنك تريد الاستفسار عمن يرثها؟

- نعم، أريد معرفة وصيتها وما أشبه ذلك.

- أما الوصية فلا علم لي بها، لكن ثروة الليدي الشخصية لا تكاد تذكر، ولكني أستطيع أن أحدد لك مجموع الممتلكات.

- نعم؟

- لقد أوصى زوجها السير ماتيو تريسيليان بكل ثروته وممتلكاته لها على أن تؤول بعد موتها إليّ أنا وزوجتي.

فهتف ليتشن: أحقاً؟

ورمق نيفيل بنظرة جعلته ينكمش واستطرد قائلاً: هل تعرف مقدار الثروة يا سيد سترينج؟

- لا أستطيع أن أذكر القيمة بالتحديد، ولكن أعتقد أنها نحو مئة ألف جنيه.

- لكل منكما؟ أنت وزوجتك؟

- بل لنا معاً.

- إنه مبلغ جسيم.

فابتسم نيفيل وقال بسرعة: أنا شخصياً أمتلك ثروة طائلة ولا حاجة بي إلى أموال الآخرين.

عادوا جميعاً إلى قاعة الطعام، وهناك اتخذ المفتش ليتشن الخطوة الثانية وهي الخاصة ببصمات الأصابع. قال إنها مسألة روتينية لاستبعاد ما يوجد منها في غرفة نوم الليدي،

وأبدى الجميع استعدادهم لإعطاء بصماتهم فذهب بهم ليتشن إلى قاعة المكتبة حيث كان الضابط جونز في انتظارهم. شرع باتل وليتشن بعد ذلك في استجواب الخدم فأوضح هرستال طريقته في غلق الأبواب وأقسم أنه وجدها في الصباح كما تركها في المساء، وقال إنه لم يوصد الباب الخارجي بالمزلاج لأن نيفيل كان قد ذهب إلى فندق إيسترهيد وكان من المحتمل أن يعود في وقت متأخر.

سأله ليتشن: هل تعرف متى عاد؟

- نعم، عاد في نحو الساعة الثانية والنصف صباحاً، فقد سمعت صوت وقوف سيارة ثم فتح الباب، ودخل السيد نيفيل وصعد الدرج.

- متى غادر هذا البيت ليذهب إلى الفندق؟

- في نحو الساعة العاشرة وعشرين دقيقة. لقد سمعت صوت غلق الباب الخارجي عقب انصرافه.

كانت هذه هي كل المعلومات التي استطاع ليتشن أن يستقيها من هرستال، أما الخادمات والوصيفات فكنّ في حالة من الهلع جعلت من المستحيل الوقوف منهن على ما يفيد التحقيق. وعندما انصرفت آخر وصيفة نظر ليتشن إلى عمه ليستطلع رأيه فقال هذا: ادعُ الخادمة الطويلة القامة ذات العينين الجاحظتين، إذ يخيل إليّ أنها تعرف شيئاً.

جاءت الخادمة واسمها إيما ويلز، فقال لها باتل بلطف: دعيني أسدي لك نصيحة مفيدة يا آنسة ويلز، من الخير لك ألا

تكتمي شيئاً عن رجال الشرطة لأن ذلك يجعلهم ينظرون إليك بعين الارتياب. هل فهمت ما أعني؟

- أؤكد لك أن...

فأسكتها باتل بأن رفع يده وقال: لقد رأيت أو سمعت شيئاً، فما هو؟

- إن ما سمعته سمعه السيد هرستال أيضاً، ولكنني واثقة من أنه لا صلة له بالجريمة.

- ربما، ماذا سمعت إذن يا آنسة ويلز؟

- كنت في طريقي إلى غرفتي بعد الساعة العاشرة، ومررت بغرفة الليدي تريسيليان فسمعتها والسيد نيفيل يتحدثان بأصوات مرتفعة غاضبة لا تدع مجالاً للشك في أنهما كانا يتشاجران.

- هل تذكرين شيئاً مما قيل؟

- لم أكن أنصت.

- مفهوم، ولكن من المؤكد أنك سمعت بعض الكلمات.

- كانت الليدي تقول إنها لا تسمح بأن يحدث شيء معين في بيتها، وكان السيد نيفيل يقول لها إن ذلك ليس من شأنها.

لم يستطع باتل الوقوف من الخادمة على أكثر من ذلك فأذن لها بالانصراف، وقال ليتشن: لا بد أن يكون جونز قد عرف شيئاً من البصمات.

- من الذي يقوم بتفتيش الغرف؟

- الضابط ويليمز.

في هذه اللحظة، أطل ويليمز برأسه من الباب وقال: يوجد في غرفة السيد سترينج شيء أريد منكما أن ترياه.

فتبعاه إلى الجناح الذي يقيم به نيفيل ووجدا على أرض غرفة نوم هذا الأخير كومة من الثياب تتألف من سروال أزرق وجاكيت من نفس اللون. سأل ليتشن بحدة: أين وجدت هذه الثياب؟

- كانت ملقاة في قاع الخزانة. انظر إلى هذا يا سيدي... وأشار إلى أكمام الثوب واستطرد قائلاً: هل ترى هذه البقع الداكنة؟ إنها دماء تلوث الكم كله!

وتبادل باتل وليتشن نظرة ذات معنى وقال الأول: هل ثمة شيء آخر؟

- توجد كمية كبيرة من الماء في أرض الغرفة.

- أتعني أنه غسل آثار الدماء عن يديه بسرعة؟ ولكن الماء قريب من النافذة لأن المطر هطل مدراراً ليلة أمس.

- ليس بالغزارة التي تصنع مثل هذه البركة.

صمت باتل. كان يتخيل صورة رجل تلوثت يداه وأكمامه بالدم فخلع ثيابه ودسها في أعماق خزانته ثم راح يزيل آثار الدماء عن يديه. نظر باتل إلى باب في الجدار فقال ويليمز: هذا الباب يؤدي إلى غرفة السيدة سترينج، وهو مغلق.

- مغلق؟ من هذا الجانب؟

- بل من الجانب الآخر.

فكر باتل لحظة ثم قال: لنرَ كبير الخدم مرة أخرى.

جاء هرستال وكان متوتر الأعصاب، ففاجأه باتل بقوله: لماذا لم تذكر لنا أنك سمعت المشاجرة التي حدثت بين السيد سترينج والليدي تريسيليان ليلة أمس يا هرستال؟

- الواقع أنني لم أعرها أية أهمية، فهي لم تكن مشاجرة وإنما مجرد خلاف ودي في الرأي.

- ماذا كان السيد سترينج يرتدي أثناء العشاء ليلة أمس؟

فكر هرستال قليلاً ثم قال: كان يرتدي ثوباً أزرق اللون.

فهز باتل رأسه مراراً وانصرف هرستال، وفي ذات اللحظة دخل جونز وهو بادي الانفعال. قال: لقد حصلت على بصماتهم جميعاً، ولا يوجد بينها سوى بصمات شخص واحد تماثل تلك التي وجدت على يد المضرب.

سأله باتل: من هو؟

- إن البصمات التي وجدت على مضرب الجولف هي بصمات السيد نيفيل سترينج.

فاعتدل باتل في مقعده وقال: هذا يحسم الأمر.

-٤-

تنهد الميجور ميتشيل وقال: يبدو أنه لا مفر من استصدار أمر بالقبض عليه، إن الأدلة أكثر من كافية.

فقال ليتشن: أظن ذلك يا سيدي.

- الدافع إلى الجريمة واضح، وسترينج هو آخر شخص رآها على قيد الحياة وهناك شاهدان يقرران أنهما سمعاه يتشاجر معها، ثم هناك ثيابه الملطخة بالدماء وبصمات أصابعه التي لا يوجد على يد المضرب بصمات سواها.

قال ليتشن: لقد كنت دائماً أحب السيد سترينج، فهو شخص دمث ورياضي، وكثيراً ما التقيت به في هذه المنطقة.

فقال باتل: وهل ثمة ما يمنع الشخص الدمث من أن يكون قاتلاً؟ على أن الشيء الذي يثير قلقي هو المضرب.

فهتف ميتشيل: المضرب؟

- نعم، المضرب أو الجرس، أو كلاهما.

- ماذا تعني؟

- إذا كان السيد سترينج قد دخل الغرفة فتشاجر مع الليدي وفقد أعصابه وهوى على رأسها بالمضرب فمعنى هذا أن الجريمة لم تكن متعمَّدة أو مدبرة، وإذا كانت الجريمة غير مدبرة أو متعمدة فلماذا حمل مضرب الجولف في تلك الساعة من الليل؟ ذلك إذا افترضنا أنه فقد أعصابه (وهو ما استبعده، فقد رأيته في ملاعب التنس فكان من أهدأ اللاعبين وأقدرهم

على ضبط مشاعره). أما إذا كانت الجريمة مدبرة بهدف الاستيلاء على ثروة العجوز فإن ذلك يتفق مع فكرة تخدير الوصيفة حتى لا تلبي رنين الجرس ولكنه لا يتفق مع حدوث المشاجرة واستخدام المضرب. لو كانت الجريمة مدبرة لحرص على تجنب المشاجرة وتسلل إلى الغرفة بينما الوصيفة مخدرة، وهناك يقتل العجوز ويزيل آثار الدماء عن المضرب ويعيده إلى مكانه ويصطنع من الأدلة ما يوحي بأن الجريمة قد ارتُكبت بهدف السرقة.

قال ميتشيل: إن استدلالاتك لا تخلو من المنطق يا باتل.

- الشيء الوحيد الذي يقلقني هو المضرب. كيف كان يمكن لشخص آخر أن يستخدم المضرب دون أن يزيل أثر بصمات سترينج؟

- ألا يحتمل أن تكون أداة الجريمة شيئاً آخر غير المضرب؟

- لا أظن ذلك يا سيدي، ولعل الاحتمال الأخير، هو أن يكون القاتل قد ارتكب جريمته بأداة أخرى ثم وضع المضرب عمداً لاتهام سترينج. وقد ذكر الطبيب على سبيل الترجيح أن المضرب هو أداة الجريمة لأنه لم يجد أمامه أداة سواها.

- دعنا إذن نستبعد موضوع المضرب. لنناقش الدافع إلى الجريمة. هل قتل نيفيل سترينج الليدي تريسيليان لكي يرث ثروتها؟

- إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على معرفة مدى حاجة نيفيل إلى المال، لذلك أرى أن نبحث حالته المالية،

فإذا كان في مأزق فإن الأدلة ضده تصبح أكثر قوة، أما إذا كان في حالة مالية طيبة فإنه يتعين علينا أن نبحث عن الدافع لدى ضيوف القصر الآخرين.

- لعلك على حق يا باتل، ولعل بعضهم أراد إثارة الشبهات حول سترينج. ولكن هل لديك فكرة عما ينبغي علينا عمله الآن؟

- الرأي عندي أن نستمر في اتهام نيفيل سترينج دون أن نقبض عليه، فنلقي عليه الأسئلة ونرصد حركاته في ليلة الجريمة ونضيق عليه الخناق ونرى تأثير ذلك على الآخرين.

- هذا جيد، وأرجو أن تتعاون مع ليتشن في تنفيذ هذه الخطة.

- شكراً لك يا سيدي. وبهذه المناسبة، هل جاءك من محامي الليدي تريسيليان ما يفيدنا في التحقيق؟

فأجاب ميتشيل: كلا، إنني أعرف المحامي تريلوني جيداً، وقد اتصلت به تليفونياً وسيرسل إليّ صورة من وصية السير ماتيو وأخرى من وصية الليدي تريسيليان، ولكني علمت منه أن إيراد الليدي الخاص من ريع سندات تملكها لا يزيد عن خمسمئة جنيه في العام وأنها قد أوصت بهذا الإيراد للآنسة ماري إيلدن وتركت بعض النقود لكل من هرستال كبير الخدم وجين باريت وصيفتها.

قال باتل: ها هم ثلاثة أشخاص يتعين علينا أن نراقبهم.

فابتسم ميتشيل وقال: أنت ترتاب بكل إنسان يا باتل.

- هناك جرائم قتل كثيرة ارتكبت طمعاً في الحصول على مبالغ لا تتجاوز الخمسين جنيهاً! إليك مثلاً جين باريت، إنها تستفيد من وصية الليدي تريسيليان، أفلا يحتمل أن تكون قد تناولت المخدر عمداً لتبعد عنها الشبهات؟

- لقد كانت قاب قوسين أو أدنى من الموت، وقد منعنا الطبيب من استجوابها.

- لعلها أسرفت في تناول المخدر بدافع الجهل، وما يقال عن جين باريت يصح أن يقال أيضاً عن ماري إيلدن وهرستال.

فقال ميتشل: عل كل حال أنا أترك الأمر لكما، فامضيا في المهمة إلى نهايتها.

-٥-

غادر المفتشان باتل وليتشن مكتب ميتشيل وعادا تواً إلى القصر حيث وجدا الضابطين ويليمز وجونز في انتظارهما. قال الأول إنه قام بتفتيش غرف الخدم ولم يجد بها ما يثير الشك وإنه أرسل ثوب نيفيل سترينج إلى المعمل لتحليل بقع الدم ومعرفة فصيلتها، وقال جونز إنه احتجز ضيوف القصر في قاعة الطعام ولم يسمح لهم بمغادرتها. وحينئذٍ التفت باتل إلى ليتشن وقال له: عليك الآن باستجوابهم، افعل ذلك بحزم وابدأ بنيفيل سترينج.

انتقل المفتشان إلى قاعة المكتبة وجلسا أمام إحدى

الموائد بينما اتخذ أحد رجال الشرطة مكانه في أحد الأركان واستعد لتسجيل كل ما يقال في التحقيق. وجاء نيفيل وكان شاحب اللون متوتر الأعصاب فقال له ليتشن: سألقي عليك بعض الأسئلة عن تحركاتك ليلة أمس يا سيد سترينج، وأود أن ألفت نظرك إلى أنك لست مرغماً على الإجابة على هذه الأسئلة وأن من حقك أن تستعين بمحاميك إذا شئت.

فأجاب نيفيل ببساطة: سل ما شئت.

- كذلك يجب أن أحذرك بأن ما ستقوله سيسجل عليك وسيكون دليلاً أمام المحكمة.

فلمعت عينا نيفيل بغضب وصاح: هل تهددني؟

- كلا يا سيد سترينج، إنني أحذرك.

فهزّ نيفيل رأسه وقال: أظن أن هذه كلها إجراءات روتينية، سل ما شئت.

- أخبرني ماذا فعلت ليلة أمس منذ أن تناولت طعام العشاء.

- بعد العشاء انتقلنا إلى قاعة الاستقبال حيث تناولنا القهوة واستمعنا إلى الإذاعة، ثم قررت الذهاب إلى فندق إيسترهيد لمقابلة أحد أصدقائي.

- ما اسم هذا الصديق؟

- لاتيمر، إدوار لاتيمر.

- هل هو أحد أصدقائك المقربين؟

- إنه صديق فحسب، وقد زارنا هنا وتناول الطعام معنا.

فقال باتل: ألم يكن الوقت متأخراً للذهاب إلى فندق إيسترهيد؟

- إن الفندق مفتوح طوال الليل.

- لكن القوم في هذا القصر يأوون إلى الفراش في وقت مبكر، أليس كذلك؟

- نعم، لذلك أخذت مفتاح الباب الخارجي حتى لا يضطر أحد الخدم للسهر وانتظار عودتي.

- ألم تفكر زوجتك في مرافقتك؟

- كلا، كانت تشعر بصداع فذهبت إلى غرفتها بعد العشاء.

- تكلم يا سيد سترينج.

- عندما هممت بمغادرة البيت جاءت جين باريت وصيفة الليدي وقالت لي إن الليدي تريد التحدث إلي، فذهبت إلى غرفتها.

- أعتقد أنك آخر من رأى الليدي على قيد الحياة يا سيد سترينج.

- أظن ذلك، وكانت عندما رأيتها في أحسن حال.

- كم من الوقت قضيت معها؟

- نحو عشرين دقيقة أو نصف ساعة.

- ومتى غادرت البيت؟

- في نحو الساعة العاشرة والنصف، ولحقت بقارب العبور وذهبت إلى فندق إيسترهيد حيث وجدت لاتيمر بعد أن بحثت عنه بعض الوقت، فلعبنا البلياردو ومرّ الوقت بسرعة فلم أستطع اللحاق بالقارب الذي ينتهي عمله عادة في الساعة الواحدة والنصف صباحاً. وعرض عليّ لاتيمر مشكوراً أن ينقلني بسيارته فيدور بي حول سولتنجتون، أي مسافة ستة عشر ميلاً تقريباً، وقد غادرنا الفندق في الساعة الثانية ووصلنا إلى هنا في نحو الساعة الثانية والنصف، فقصدت إلى غرفتي مباشرة ولم أرَ أو أسمع ما يريب. كان الجميع نياماً، وفي الصباح سمعت الخادمة تصرخ.

- ماذا كان موضوع حديثك مع الليدي تريسيليان؟

- تحدثنا في أمور كثيرة.

- هل كان الحديث ودياً؟

- طبعاً.

- ألم يقم بينكما شجار عنيف؟ من الأفضل أن تقول الصدق فإن بوسعي أن أذكر العبارات التي سمعت من حديثكما.

- قام بيننا خلاف في الرأي.

- ما سب الخلاف؟

- الواقع أنها كانت شديدة التزمت وتحب دائماً أن تفرض

إرادتها على الآخرين. لقد اختلفنا في الرأي واحتدمت المناقشة بيننا ولكننا افترقنا صديقين واتفقنا على ألا نتفق.

- لقد اعترفت صباح اليوم بأن المضرب الذي استخدم في الجريمة هو مضربك. فبماذا تفسر بصماتك عليه؟

- إنه مضربي وطبيعي أن توجد عليه بصمات أصابعي.

- إن وجود بصماتك عليه يدل على أنك آخر شخص أمسك به.

- قد يكون هناك من استخدم القفاز في الإمساك به.

- لو صحّ ذلك لمحا القفاز آثار بصماتك.

- لا أعلم، الحق أنني لا أعلم.

- هل لديك ما تفسر به وجود آثار دماء على أكمام ثوبك؟

- آثار دماء؟! هذا مستحيل.

- ألم يحدث مثلاً أن جرحت يدك؟

- كلا، إن كل هذا جنون! لا أكاد أفهم شيئاً.

فقال باتل: إن الحقائق واضحة بما فيه الكفاية.

- لكن لماذا أقدم على ارتكاب جريمة كهذه؟ أنا أعرف الليدي تريسيليان منذ نعومة أظافري.

- لقد ذكرت بنفسك أنك سترث بعد موتها ثروة طائلة.

- لكني لست بحاجة إلى النقود وفي استطاعتي أن أثبت

ذلك، دعني أتصل بمدير البنك الذي أتعامل معه وتحدث إليه بنفسك.

وافق باتل، وتمّ الاتصال التليفوني وتحدث ليتشن إلى مدير البنك ثم وضع السماعة. سأله نيفيل بلهفة: ماذا قال؟

- قال إن لك رصيداً ضخماً.

- أرأيت؟ أنا لم أذكر سوى الحقيقة.

فقال باتل بصوت رقيق: إن لدينا من الأدلة ما يبرر استصدار أمر باعتقالك يا سيد سترينج، ولكننا لم نفعل ذلك لأننا نريد أن نهيئ لك كل فرصة ممكنة لإثبات براءتك.

- هل معنى ذلك أنكم مقتنعون بأنني مرتكب الجريمة ولا ينقصكم إلاّ معرفة الدافع إليها؟

تبادل المفتشان نظرة ذات معنى ولزما الصمت، فهتف نيفيل: يا إلهي! كأنني في حلم مزعج.

-٦-

عندما دخلت كاي قاعة المكتبة كانت تشعر بمزيج من الخوف والفضول، لكن ليتشن استدرجها بلطف إلى الحديث عن الليلة السابقة، فقالت إنها شعرت بصداع فأوت إلى فراشها ولم تستيقظ إلاّ صباحاً على صراخ الخادمة. وهنا تدخل باتل في الحديث وسألها: ألم يذهب زوجك إلى غرفتك للاطمئنان عليك قبل أن يغادر البيت إلى الفندق؟

- كلا.

- معنى ذلك أنك لم تريه منذ العشاء حتى صباح اليوم، أليس كذلك؟

- بلى.

- سيدة سترينج، لاحظت أن الباب الموصل بين غرفتك وغرفة زوجك مغلق، فهل تعرفين من أغلقه؟

- أنا أغلقته.

صمت باتل وانتظر، انتظر طويلاً كما ينتظر القط خروج الفأر من جحره. كان صمته الطويل خيراً من عشرات الأسئلة، فقد قالت كاي فجأة: لعل من الأفضل أن أصارحكم بكل شيء، فقد سمع هرستال حديثنا ومن المؤكد أنه سيفضي به إليكم إذا لم أفعل أنا ذلك. لقد وقع خلاف شديد بيني وبين نيفيل فغضبت وقصدت إلى غرفتي وأوصدت ذلك الباب.

- ماذا كان سبب هذا الخلاف؟

- هل يهمك أن تعرف؟ حسناً، لقد تصرف نيفيل تصرف إنسان أحمق وكل ذلك بسبب تلك المرأة.

- أية امرأة؟

- زوجته الأولى، وهي التي حملته على القدوم إلى هنا.

- لكي تقابلك؟

- نعم، لقد زعم نيفيل أن الفكرة فكرته وهذا غير

صحيح، الفكرة نشأت عندما قابلها في لندن.

- وماذا كان غرضها؟

- كانت تريد أن تسترده. إنها لم تغفر له قط أنه تركها من أجلي فأرادت أن تنتقم، وهذا هو انتقامها. إنها لم تكف منذ وصولنا عن العمل على إغرائه واجتذابه إليها مستعينة في ذلك بصديقها القديم توماس رويد، فراحت توهم نيفيل أن رويد يريد الاقتران بها وذلك لكي تثير غيرته وتبعث الحب في قلبه.

وكفت عن الكلام وهي تلهث من الانفعال والغضب فقال باتل: كنت أظنه سيسر حين يعلم أنها ستجد السعادة مع صديق قديم لها.

- يسر؟ إنه يتلظى غيرة.

- إذن فهو مولع جداً بها.

أجابت بمرارة: نعم، وهي حريصة على ألا تخبو نار حبه لها.

- ألم يكن بوسعك أن تعارضي فكرة القدوم إلى هنا أثناء وجودها؟

- لم أشأ أن أبدو كأنني أغار منها.

- ولكنك كنت تغارين منها. أليس كذلك؟

- بلى، كنت دائماً أغار منها. منذ البداية كنت أشعر وكأنها معي في البيت، وكأنه بيتها وليس بيتي. لقد أعدت

طلاء الجدران واستبدلت الأثاث، ولكن دون جدوى.

- شكراً لك يا سيدة سترينج. كان لا بد لنا أن نلقي عليك كل هذه الأسئلة، خاصة وأنك سترثين مع زوجك مئة ألف جنيه.

فهتفت في دهشة: مئة ألف جنيه! وسأنال منها خمسين ألفاً؟

- هل كنت تعلمين ذلك؟

- كنت أعلم أن السير ماتيو أوصى بثروته لنيفيل وزوجته بعد وفاة الليدي، ولكني لم أتوقع أن يكون الإرث بهذه الضخامة.

* * *

بعد انصرافها نظر باتل إلى ليتشن وقال: ما رأيك؟ إنها فاتنة ولكنها ليست سيدة مهذبة.

واستدعيت ماري إيلدن فروت ما تعرفه عن أحداث الليلة الماضية وأيدت أقوال نيفيل وقررت أنها أوت إلى فراشها في الساعة العاشرة، فسألها باتل: هل تعرفين من كان صاحب فكرة الجمع بين الزوجتين هنا؟

- إنه نيفيل، وقد قرر ذلك بنفسه.

- ألم تكن السيدة أودري هي صاحبة الفكرة؟

- كلا، بتاتاً.

-٧-

كانت أودري ترتدي ثوباً باهت اللون أبرز شحوبها، ولكنها كانت هادئة الأعصاب فلم تضطرب ولم تتلعثم، وأجابت على أسئلة باتل بأنها ذهبت إلى فراشها في الساعة العاشرة ولم تسمع شيئاً خلال الليل.

قال باتل: معذرة إذا أقحمت نفسي في شؤونك الخاصة، ولكن هل تسمحين لي بأن أسألك كيف اتفق وجودك في هذا القصر؟

- لقد تعودت أن أقضي هنا هذا الشهر من السنة، واتفق هذه المرة أن أبدى زوجي السابق رغبته في الحضور في نفس الشهر، وسألني عما إذا كان لديّ مانع فأجبته سلباً.

- هل الفكرة كانت فكرته؟

- نعم.

- ألم تكن فكرتك؟

- كلا.

- لكنك وافقت؟

- نعم، فلم يكن من اللائق أن أرفض.

- ألا تحقدين على زوجك السابق؟

- كلا.

- أنت سيدة كريمة طيبة القلب.

لم تجب، فصمت طويلاً على نحو ما فعل مع كاي، ولكن أودري لم تكن كاي ولم تكن ممن يغريهم صمت الآخرين بالكلام والثرثرة. كان بوسعها أن تصمت طويلاً دون أن تبدو عليها بوادر القلق. ولم يسع باتل إلاّ التسليم بالهزيمة.

-٨-

كان المفتش ليتشن يهم باستدعاء توماس رويد لاستجوابه حين دق جرس الهاتف، فتناول السماعة وأصغى وهتف: أهذا أنت أيها الطبيب؟ تقول إنها استردت وعيها وتكلمت؟ ماذا؟ ثم التفت إلى باتل وقال: تعال يا عماه، تعال واسمع.

تناول باتل السماعة وأنصت طويلاً ثم التفت إلى ليتشن وقال: ادعُ نيفيل سترينج.

وعندما دخل نيفيل، كان باتل يضع السماعة. كان نيفيل ممتقع الوجه شارد البصر، فقال باتل: هل تعرف شخصاً يمقتك بكل قوته يا سيد سترينج؟ هل آذيت أحداً؟ فكر جيداً.

فكر نيفيل طويلاً ثم قال: إذا كان هناك شخص آذيته فهو زوجتي الأولى. لقد تركتها من أجل امرأة أخرى، ولكني واثق من أنها لا تمقتني... إنها ملاك.

- أنت رجل سعيد الحظ يا سيد سترينج، لقد نجوت بمحض الصدفة.

- ماذا تعني؟

- بعد أن غادرت أنت البيت ليلة أمس دقت الليدي تريسيليان الجرس، فذهبت إليها جين باريت ووجدتها على قيد الحياة، وأكثر من ذلك فإن جين باريت أبصرت بك وأنت تهبط الدرج وتغادر القصر. لقد أفاقت الوصيفة من غيبوبتها وتكلمت.

- والمضرب وبصمات الأصابع؟

- إنها لم تُقتل بالمضرب، والدكتور لازنبي غير مرتاح إلى المضرب كأداة للجريمة. الليدي قتلت بأداة أخرى وقد وضع المضرب لإثارة الشبهات حولك، وربما كان القاتل قد سمع مشاجرتك مع العجوز ووجد الفرصة سانحة لتوريطك في الجريمة، أو ربما...

وصمت لحظة ثم سأل: من الذي يمقتك إلى هذا الحد يا سيد سترينج؟

-٩-

استقل باتل وليتشن قارب العبور إلى إيسترهيد فوصلا إلى الفندق في الوقت الذي كان فيه إدوارد لاتيمر يهم بالخروج، وما أن قدما نفسيهما إليه حتى أبدى استعداده التام لمعاونتهما فقال: نعم، جاء نيفيل ليلة أمس وكان عابساً متجهماً وقال لي إنه تشاجر مع الليدي.

فقال باتل: لقد فهمت منه أنه بحث عنك بعض الوقت.

- نعم، ولا أعلم لماذا، فقد كنت جالساً في الردهة

ولكنه قال إنه لم يرني، وربما أكون قد خرجت إلى الحديقة لبضع دقائق.

- ماذا فعلتما بعد أن لعبتما البلياردو؟

- تحدثنا قليلاً، ثم فطن نيفيل إلى أنه قد تخلف عن موعد العودة بقارب العبور فنقلته بسيارتي ووصلنا إلى القصر في نحو الساعة الثانية والنصف.

- هل ظل السيد سترينج معك طوال المساء؟

- نعم، وفي استطاعتك أن تسأل خدم هذا الفندق.

- شكراً لك يا سيد لاتيمر.

وعندما انصرفا قال ليتشن: ما غرضك من معرفة تحركات نيفيل سترينج بعد أن ثبتت براءته؟

فابتسم باتل وهتف ليتشن: آه، فهمت. تريد التأكد من تحركات لاتيمر.

- أردت أن أعرف كيف قضى لاتيمر ليلة أمس. نحن نعلم أنه كان مع سترينج من الساعة الحادية عشرة والربع حتى منتصف الليل، ولكن أين كان قبل ذلك حين جاء سترينج ولم يجده؟

واصلا تحرياتهما مع عامل البار والخدم وعمال المصعد وعلما أن لاتيمر قد شوهد في ردهة الفندق بين التاسعة والعاشرة، وقالت لهما إحدى الوصيفات إنها رأت لاتيمر في مكتبة الفندق مع سيدة بدينة تدعى السيدة بيدروس، وقررت

هذه الأخيرة أنه كان معها في المكتبة حقاً ولكنها تعتقد أن ذلك كان في نحو الساعة الحادية عشرة.

-١٠-

كان باتل يتفقد الغرف بنفسه حين توقف بغتة أمام باب غرفة أودري. كان للباب مقبضان، أحدهما وهو الأيمن يعلوه الصدأ والآخر لامع براق. قال وهو يشير إلى المقبض اللامع: أراهن أن هذا المقبض يمكن نزعه بمجرد إدارته إلى اليسار.

مد ليتشن يده وأدار المقبض فانفصل من مكانه. وقال باتل: إذا فحصت هذا المقبض جيداً فستجد فيه آثار دماء. لقد كان هذا المقبض هو أداة الجريمة. ثم أطلّ من نافذة الغرفة وأجال البصر في الحديقة تحت النافذة، ولم يلبث أن قال: يوجد شيء أصفر اللون يتدلى من غصن هذه الشجرة. عليّ به، فقد يكون له شأن باللغز الذي نحاول حله.

-١١-

كان المفتش باتل يجتاز بهو القصر حين لحقت به ماري إيلدن وقالت له: هل أستطيع التحدث إليك لحظة يا سيدي المفتش؟

- بلا شك يا آنسة إيلدن.

وفتح باب قاعة الطعام ودخل، فتبعته وقالت له: أريد أن أقول لك شيئاً أرى أنك ينبغي أن تعرفه.

وحدثته عن زيارة السيد تريفز وعن قصة الجريمة التي رواها، وظهرت دلائل الاهتمام على وجه باتل وسأل: هل قال إنه يستطيع التعرف على ذلك الطفل الذي أطلق السهم؟

- نعم، ويبدو أن الطفل كانت له علامة مميزة، فقد قال السيد تريفز إنه يستطيع أن يتعرف عليه في أي مكان.

ثم حدثته عن موت السيد تريفز الفاجع في تلك الليلة فهتف باتل: هذا شيء جديد بالنسبة لي.

- ماذا تعني؟

- أعني أن هذه هي أول جريمة ترتكب بمجرد وضع لوحة على باب مصعد!

فنظرت إليه في هلع وقالت: هل تظن حقاً أنها...

- إنها جريمة قتل بارعة وسريعة. كان يمكن طبعاً ألا تنجح ولكنها نجحت.

- هل قُتل السيد تريفز لمجرد أنه كان يعلم...؟

- كان يعلم، وكان بوسعه أن يرشدنا إلى ذلك الشخص. إننا الآن نسير في الظلام ولكني أستطيع أن أقول لك يا آنسة إيلدن إننا أمام جريمة دبرت ببراعة منذ وقت طويل.

بعد انصراف ماري إيلدن قصد باتل إلى قاعة المكتبة ودق بابها فسمع صوت نيفيل وهو يقول: ادخل. كان بالغرفة رجل طويل القامة قال عنه نيفيل إنه السيد تريلوني المحامي.

فقال باتل معتذراً: يؤسفني أن أزعجكما، ولكن ثمة مسألة

أريد أن أستوضحها. أنا أعلم يا سيد سترينج أنك ترث نصف ثروة السير ماتيو، ولكن من الذي يرث النصف الآخر؟

- زوجتي.

- أعلم ذلك، ولكن أيهما؟

- آه، فهمت. إن التي ترث النصف الآخر هي أودري، فهي التي كانت زوجتي عندما كتب السير ماتيو وصيته. أليس كذلك يا سيد تريلوني؟

أومأ تريلوني برأسه موافقاً وقال: إن الوصية واضحة وتقضي بقسمة الثروة مناصفة بين نيفيل سترينج وأودري سترينج، والطلاق الذي حدث لن يغير من الأمر شيئاً.

- هل أفهم من ذلك أن السيدة أودري سترينج تعرف هذه الحقائق.

- طبعاً.

- والسيدة سترينج الحالية؟

فقال نيفيل: أظن أنها تعرف... الواقع أنني لم أحدثها كثيراً في هذا الموضوع.

فقال باتل: يخيّل إليّ أنها قد أساءت فهم الموقف. إنها تعتقد أن الميراث سيوزع بينك وبين زوجتك الحالية، أو أن هذا على الأقل ما فهمته منها صباح اليوم، ولذلك جئت الآن للوقوف على الحقيقة.

قال نيفيل: على كل حال أنا سعيد جداً من أجل أودري،

فقد كانت تعاني بعض الضيق ولكن أزمتها ستنتهي الآن.

- لكن أظن أنه كان من حقها أن تحصل منك على نفقة بعد الطلاق.

قال نيفيل: هناك شيء يا سيدي اسمه الكبرياء، وقد رفضت أودري بدافع الكبرياء أن تأخذ بنساً واحداً من النفقة الضخمة التي عرضتها عليها.

قال تريلوني: نعم، لقد عرض عليها نفقة سخية ولكنها ردتها وأبت قبولها.

-١٢-

تناول ماكويرتر عشاءه في الفندق وخرج للنزهة، وقادته قدماه للمرة الثانية خلال ليلتين متتاليتين إلى الربوة التي حاول منذ بضعة شهور أن يلقي بنفسه من فوقها. كان الجو صحواً والسماء صافية، فأرسل بصره إلى القصر الكبير الذي يطل على النهر من ناحية وعلى البحر من ناحية أخرى. لا بد أنه قصر الليدي تريسيليان التي سمع نبأ مصرعها في الفندق وقرأه في الصحف.

كان منصرفاً إلى تأملاته حين رأى فجأة شبحاً أبيض يندفع نحوه بسرعة وكأن آلاف الشياطين تطارده. وأدرك معنى هذا الاندفاع اليائس فنهض واقفاً ووثب في أثر الشبح وأمسك به في ذات اللحظة التي أوشك فيها أن يهوي إلى البحر، وهتف وهو يحيط الشبح بساعديه: كلا، كلا.

قاومه الشبح بقوة وفي صمت، ولكن مقاومته لم تستمر

طويلاً وما لبثت قواه أن خارت. ووجد ماكويرتر بين يديه امرأة فاتنة نحيلة الجسم تبكي في صمت. قال لها: لماذا تريدين أن توردي نفسك موارد التهلكة؟ هل أنت تعسة؟

فأجابت بصوت خافت لاهث: أنا خائفة.

- خائفة؟ وممّ؟

- من الشنق.

- ولهذا تريدين أن...

ولم يتم عبارته، فقد رآها تغمض عينيها وأحس بجسدها يرتجف بين ذراعيه. وبسرعة وذكاء استطاع أن يضع النقط فوق الحروف فقال: أنت من قصر الليدي تريسيليان التي قُتلت؟ لا بد أنك السيدة سترينج، الزوجة الأولى.

أومأت برأسها علامة الإيجاب، فقال ببطء وهو يحاول الاستدلال على الحقائق من الشائعات التي سمعها والتفصيلات التي قرأها في الصحف: لقد حامت الشبهات حول زوجك، أليس كذلك؟ ولكنهم وجدوا أن الأدلة زائفة وأنها اصطُنعت عمداً لاتهامه.

وكف عن الكلام ولاحظ أنها لم تعد ترتجف ولكنها تنظر إليه نظرة طفل وديع. قال: آه، لقد فهمت. إنه تركك من أجل امرأة أخرى وكنت تحبينه، ولذلك...

قالت بحدة: كلا، ليس الأمر كما تظن.

فقال لها بحزم: عودي إلى البيت ولا تخشي شيئاً، هل

سمعت؟ سوف أقف بجانبك إلى النهاية.

-١٣-

كانت ماري إيلدن متعبة وتشعر بصداع فتمددت على أريكة في قاعة الاستقبال. كانت في البيت هي والخدم فقط، فقد ذهبت كاي وأودري بسيارة لاتيمر إلى سولتنجتون لشراء ثياب الحداد بينما خرج نيفيل وتوماس رويد للنزهة، وفيما هي تفكر في أحداث الأيام الأخيرة إذا بهرستال يقول لها: لقد جاء رجل يطلب مقابلتك يا سيدتي، وقد ذهبت به إلى قاعة المكتبة.

- ما اسمه؟

- قال إن اسمه ماكويرتر.

- لا أعرف أحداً بهذا الاسم. لا بد أن يكون أحد مخبري الصحف، وما كان ينبغي أن تسمح له بالدخول.

- إنه صديق للسيدة أودري وليس مخبراً يا سيدتي.

- هذا أمر آخر.

أصلحت من زينتها وقصدت إلى قاعة المكتبة، وأدهشها أن ترى هناك رجلاً طويل القامة متجهم الوجه لا يمكن أن يكون صديقاً لأودري، ولكنها مع ذلك قالت له بلطف: يؤسفني أن أقول لك إن السيدة سترينج ليست هنا الآن، هل تريد مقابلتها؟

نظر إليها بإمعان وقال ببطء: هل أنت الآنسة إيلدن؟

- نعم

- إذن لا شك أنك تستطيعين مساعدتي. أنا بحاجة إلى حبل.

فقالت بدهشة: حبل؟

- نعم، أين تضعون الحبال عادة؟

- في غرفة الأشياء المهملة.

وقادته إلى تلك الغرفة وفتحت بابها. وأجال ماكويرتر البصر في جوانب المكان واستقرت عيناه على لفة حبال كبيرة موضوعة فوق إحدى الصناديق فتقدم منها وأمسك بالحبل، ثم التفت إلى ماري إيلدن وقال: أرجو أن تتذكري ما سأقوله لك الآن يا آنسة إيلدن. إن التراب يغطي كل شيء في هذه الغرفة فيما عدا هذا الحبل، فهل لك أن تلمسيه بيدك؟

أمسكت بالحبل وقالت: إنه مبتل.

- تماماً.

ودار على عقبيه لينصرف فقالت له: ألا تريد الحبل؟

- كلا، إنما أردت فقط أن أعرف مكانه، وسوف أكون شاكراً إذا أغلقتِ باب هذه الغرفة وقدمتِ المفتاح للمفتش باتل أو المفتش ليتشن.

- لكنني لا أفهم شيئاً.

- ليس من الضروري أن تفهمي.

وشد على يدها شاكراً وانصرف وتركها في حيرة شديدة، وبعد بضع دقائق عاد نيفيل وتوماس وتبعتهما أودري وكاي بعد قليل. ولم يكد الجميع يفرغون من تناول طعام الغداء وينتقلون إلى قاعة الاستقبال حتى أعلن هرستال قدوم رجال الشرطة. دخل المفتش باتل وهو متألق الوجه وقال معتذراً: يؤسفني أن أزعجكم مرة أخرى، ولكن يوجد أمر أو اثنان أود معرفة المزيد عنهما. فمثلاً قفاز من هذا؟

وأخرج من جيبه قفازاً صغيراً من الجلد الأصفر وقال محدثاً أودري: هل هذا قفازك يا سيدة سترينج؟

فهزت أودري رأسها وأجابت: كلا، إنه ليس قفازي.

- وأنت يا آنسة إيلدن؟

- ليس لديّ قفازات بهذا اللون.

فقالت كاي: دعني أراه.

تناولت القفاز وفحصته وهزت رأسها سلباً، فقال لها باتل: حاولي أن تجربيه.

حاولت كاي ووجدته صغيراً، وكذلك حاولت ماري إيلدن بنفس النتيجة، فتحول إلى أودري وقال: أظن أنه قفازك. إن يدك أصغر من أيديهما.

وضعت أودري يدها في القفاز فلاءمها تماماً، فقال نيفيل

بحدة: لقد قالت لك إنه ليس قفازها.

- لعلها فعلت ذلك عن سهو أو عن خطأ.

قالت أودري: ربما كان قفازي. إن القفازات تتشابه.

فقال باتل: نحن على كل حال قد وجدناه بين أغصان شجرة تحت نافذتك.

فوجم الجميع، وفتحت أودري فمها ولكنها لم تنطق بكلمة، وأخيراً صاح نيفيل: أصغِ إليّ أيها المفتش، إن...

لكن باتل قاطعه في هدوء قائلاً: أريد أن أتحدث إليك على انفراد يا سيد سترينج.

- على رسلك، هلم بنا إلى قاعة المكتبة.

وتبعه المفتشان إلى قاعة المكتبة، وما أن أغلق باب القاعة حتى قال باتل: لقد وجدنا أشياء عجيبة في هذا البيت يا سيد سترينج.

- أشياء عجيبة! ماذا تعني؟

فأومأ باتل إلى ليتشن فغادر الغرفة وعاد بعد قليل وبيده أداة غريبة، فتناولها باتل وقال: هذه الأداة تتألف من كرة من النحاس الثقيل هي في الواقع مقبض أحد الأبواب، وقد وضعت في تجويفها يد مضرب من مضارب التنس واستخدمت في قتل الليدي تريسيليان.

- هذا مخيف! ولكن أين وجدت هذه الأداة؟

- إن الكرة النحاسية هي مقبض باب كما ذكرت، وقد قام القاتل بتنظيفها من الخارج بعد الجريمة ولكنه أهمل تنظيف تجويفها، وقد وجدنا آثار دماء في التجويف. كذلك أعاد القاتل يد مضرب التنس إلى مكانها وألصقها بالمضرب بواسطة شريط طبي لاصق ثم ألقى به في الخزانة تحت الدرج مع عشرات من المضارب.

- يا لك من رجل بارع! ألم تجد عليها بصمات أصابع؟

- إن المضرب خفيف الوزن مما يدل على أنه مضرب السيدة كاي سترينج، وقد وجدنا عليه بصمات أصابعها وكذلك بصمات أصابعك، لكننا وجدنا أيضاً من الآثار ما يدل على أن شخصاً يلبس قفازاً قد أمسك به بعدكما. كذلك وجدنا بصمات أخرى على الشريط الطبي اللاصق هي بغير شك بصمات الشخص الذي أعاد يد المضرب إلى مكانها بعد الجريمة، ولن أقول الآن بصمات من هي فإن لديّ ملاحظات أخرى أريد أن أبديها.

قال ذلك وصمت لحظة ثم استطرد قائلاً: أريد أن تعد نفسك لمفاجأة يا سيد سترينج، لكن دعني أسألك أولاً: هل أنت واثق من أن السيدة أودري ليست هي صاحبة فكرة اجتماعكم في هذا القصر؟

- إنها فكرتي أنا وليست فكرة أودري.

في تلك اللحظة فُتح الباب ودخل توماس رويد قائلاً: يؤسفني أن أزعجكم ولكني أريد أن أكون في الصورة.

فنظر إليه نيفيل بوجه عابس وقال: هذا اجتماع خاص أيها الصديق.

ذلك لا يهمني، لقد كنت ماراً بالباب وسمعت اسم أودري يتردد.

- وما شأنك أنت بأودري؟

- بل ما شأنك أنت؟ أنا لم أصارح أودري بشيء ولكن في نيتي أن أطلب يدها.

هنا سعل المفتش باتل وقال: لا أهمية لذلك يا سيد سترينج. أريد أن ألقي عليك سؤالاً آخر، لقد جاء في تقرير معمل التحاليل عن الثوب الذي كنت ترتديه في ليلة الجريمة أنه قد وُجدت على كتف الثوب وفي أحد أكمامه بعض شعرات شقراء، فهل تعرف كيف وصلت إليه؟

- لعلها من شعري.

- كلا، إنها شعرات طويلة من رأس سيدة.

- لا بد أنها من رأس أودري. لقد تذكرت الآن، شعرها اشتبك ذات مساء بأحد الأزرار في كم ثوبي.

- كانت هناك شعرات على كتف الثوب وكذلك وجدت على ياقة الثوب آثار من مسحوق برامافيرا، وهو مسحوق غالي الثمن ذو رائحة زكية مما تستعمله السيدات في التجميل. إن السيدة كاي تستعمل مسحوقاً اسمه قبلة الشمس أما برامافيرا فإنه مسحوق السيدة أودري.

- ماذا تريد أن تقول أيها المفتش؟

- أريد أن أقول إن السيدة أودري قد ارتدت ذلك الثوب، وهذا هو التفسير الوحيد لوجود الشعرات البيضاء والمسحوق. وقد رأيت القفاز يلائم يدها. كان ذلك قفاز اليد اليمنى، أما قفاز اليد اليسرى فها هو.

وأخرج من جيبه قفازاً وضعه على المائدة، فصاح نيفيل في ذعر: ما هذه البقع عليه؟

- إنها آثار دماء يا سيد سترينج، والقفاز هو قفاز اليد اليسرى، والسيدة أودري عسراء تستعمل يدها اليسرى. لقد لاحظت ذلك حين رأيتها أول مرة أمام مائدة الطعام، وكان وضع فراش الليدي تريسيليان وموضع إصابتها يدلان على أن القاتل شخص أعسر، أما المقبض النحاسي فكان مقبض باب غرفة السيدة أودري. كل شيء واضح يا سيد سترينج وأصابع الاتهام تشير إلى شخص واحد.

- هل تريد أن تقول إن أودري دبرت كل هذه الخطة المحكمة بصبر وأناة وقتلت السيدة العجوز التي عرفتها كل هذه السنين لكي تحصل على نصيبها من الميراث؟

- أنا لا أقول شيئاً يا سيد سترينج، ولكنها الأدلة تتكلم. ويجب أن تعلم أن هذه الجريمة إنما دبرت أولاً وأخيراً للكيد لك، ومن الواضح أن السيدة أدوري لم تكف منذ تركتها عن التفكير في وسيلة للانتقام منك، وربما خطر لها في وقت ما أن تقتلك، ولكنها وجدت أن ذلك لا يكفي ففكرت في أن تدفع

بك إلى المشنقة، وحانت لها الفرصة حين تشاجرت أنت مع الليدي تريسيليان فتسللت إلى غرفتك وارتدت ثوبك وقتلت السيدة تريسيليان وتركت مضرب الجولف في مكان الجريمة للإيقاع بك، ولم ينقذك سوى أن الليدي دقت الجرس وأن الوصيفة وجدتها على قيد الحياة عقب انصرافك.

فدفن نيفيل وجهه بين يديه وصاح: يا إلهي! لا أصدق. إن تصورك للجريمة كله خطأ، وأودري هي أنبل وأكرم امرأة رأيتها في حياتي.

تنهد باتل وقال: ليس من شأني أن أناقشك يا سيد سترينج، إنما أردت فقط أن أعدّك لتلقي الصدمة. إنني أحمل أمراً بالقبض على السيدة أودري سترينج، ويحسن بك أن تعدّ محامياً للدفاع عنها.

- هذا غير معقول!

قال توماس رويد بهدوء: كفى صياحاً يا نيفيل. ألا ترى أن المعونة الوحيدة التي تستطيع أن تقدمها لأودري هي أن تتخلى عن أوهامك وعن الشهامة الفرنسية والفروسية وتقول الحقيقة.

- الحقيقة؟! أية حقيقة؟

- الحقيقة عن أودري وأدريان.

ثم نظر إلى المفتش وقال: لديك فكرة خاطئة عن بعض الحقائق أيها المفتش. إن نيفيل لم يهجر أودري، بل هي التي هجرته وهربت مع أخي أدريان، ثم مات أدريان في حادث سيارة، وعندها تصرف نيفيل بشهامة ووافق على أن تطلب

أودري الطلاق باعتباره هو المخطئ والملوم.

قال نيفيل بصوت خافت: لم أشأ أن يلطخ اسمها بالوحل، ولكن لم أكن أعلم أن هناك من يعرف هذه الحقائق.

فقال توماس: لقد حدثني أدريان بكل شيء في إحدى رسائله. ومن هذا ترى يا سيدي المفتش أنه ليس ثمة ما يدعو أودري إلى أن تحقد على نيفيل. بل على العكس، إنها يجب أن تشعر نحوه بالوفاء وعرفان الجميل، وقد عرض عليها مبلغاً كبيراً كنفقة ولكنها رفضته. وكان من الطبيعي إزاء كل ذلك ألا ترفض رجاءه حين اقترح عليها أن تقابل كاي.

قال نيفيل: أرأيت يا سيدي المفتش؟ إن هذا يبطل الدافع إلى الجريمة. إن توماس على حق.

– الدوافع شيء والحقائق شيء آخر، جميع الحقائق تؤكد أنها مذنبة.

قال نيفيل: لقد كانت كل الحقائق منذ يومين تؤكد أنني مذنب.

– بماذا تريد أن تقنعني؟ بأن هناك شخصاً ينقم عليكما، فلما فشلت التهمة التي لفقها لك حوّلها إلى السيدة أودري؟ هل هناك شخص يمقتك أنت وزوجتك السابقة؟

قلب نيفيل كفيه ولم يُجب، وقال باتل: لا جدوى من هذا الحوار يا سيد سترينج. يجب أن أؤدي واجبي.

وغادر الغرفة مع ليتشن وتبعهما نيفيل وتوماس إلى قاعة الاستقبال. ونهضت أودري حالما أبصرت بهم وتقدمت

لمقابلتهم وقالت وهي تنظر في عيني نيفيل: أنت تريدني، أليس كذلك؟

- لديّ أمر بإلقاء القبض عليك يا سيدة أودري بتهمة قتل الليدي كاميللا تريسيليان في يوم ١٢ أيلول (سبتمبر) الماضي، ويجب أن أحذرك بأن كل ما تقولينه سيسجل عليك ويتخذ دليلاً ضدك في المحكمة.

فتنهدت أودري وأشرق وجهها وقالت بارتياح: كم أنا مسرورة بأن كل شيء قد انتهى!

صاح نيفيل: أودري، لا تتكلمي!

- ولمَ لا يا نيفيل؟ كل هذا صحيح، وقد تعبت.

فنظر ليتشن إلى عمه وأدهشه شرود ذهنه والذهول الذي ارتسم على وجهه. كان يحملق في وجه أودري وكأنه لا يصدق عينيه.

* * *

في تلك اللحظة الحاسمة أطل هرستال من الباب وأعلن قدوم السيد ماكويرتر. دخل ماكويرتر بقدم ثابتة واتجه مباشرة إلى باتل وقال: هل أنت مفتش الشرطة المكلف بقضية الليدي تريسيليان؟

- نعم.

- لديّ أقوال هامة أريد الإدلاء بها، ويؤسفني أنني لم أحضر قبل الآن ولكن الحادث الذي رأيته في ليلة الجريمة لم

تتبين خطورته إلاّ اليوم. هل أستطيع محادثتك على انفراد؟

هنا اقترب ليتشن من عمه وهمس في أذنه كلاماً واقتاد باتل وماكويرتر إلى قاعة المكتبة، وهناك قال له: يقول زميلي إنه رآك قبل الآن في الشتاء الماضي.

- نعم، لقد حاولت الانتحار في شهر كانون الثاني (يناير) الماضي بأن ألقيت بنفسي من فوق ربوة ستار هيد، وقد خطر لي منذ أيام أن أزور البقعة التي أوشكت أن أنهي فيها حياتي. كان ذلك في يوم الإثنين الماضي، وفيما كنت أنظر إلى الأفق عبر خليج إيسترهيد رأيت شيئاً أعتقد أن له صلة بالجريمة. وإليك ما رأيت.

-١٤-

عندما عاد المفتش باتل إلى قاعة الاستقبال لم يكن وجهه يعبر عن شيء، وأخذ يحدث أودري: أرجو أن تأخذي معك بعض ما تحتاجين إليه من أمتعة، وسيرافقك المفتش ليتشن إلى غرفتك.

قالت ماري إيلدن: سأذهب معها.

وخرجت المرأتان مع ليتشن، وقال نيفيل يحدث باتل: ماذا قال لك هذا الرجل؟

- تعني ماكويرتر؟ لقد روى لي قصة عجيبة.

- ألم يقل لك شيئاً يفيد أودري؟ هل أنت مصمم على اعتقالها؟

- أنا أؤدي واجبي يا سيد سترينج.

- إذن يجب أن أتصل بالمحامي تريلوني.

- لا ضرورة للعجلة يا سيد سترينج، فسأقوم أولاً بتجربة معينة على ضوء القصة التي رواها ماكويرتر. إنني أنتظر فقط حتى ترحل السيدة أودري.

وشوهدت أودري في تلك اللحظة وهي تهبط الدرج مع المفتش ليتشن، وكان وجهها هادئاً لا أثر فيه للانفعال، فهتف نيفيل: أودري!

فرمقته بنظرة باهتة وقالت: أنا بخير يا نيفيل ولست أبالي شيئاً.

وقف توماس رويد بالباب كأنما ليحول دون خروجها، فنظرت إليه وابتسمت وغمغمت قائلة: توماس المخلص!

فغمغم قائلاً: إذا كان هناك ما يمكن عمله...

قالت: لا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً. ثم خرجت مرفوعة الرأس إلى حيث كانت سيارة الشرطة في انتظارها.

بعد قليل قال المفتش باتل: لقد قلتُ إن هناك تجربة يجب أن أقوم بها. إن ماكويرتر ينتظرنا في زورق العبور فهلمّوا بنا جميعاً. تعال معنا يا سيد لاتيمر.

* * *

الفصل الخامس
ساعة الصفر

كان الهواء بارداً فلفت كاي معطفها حول جسدها، وانطلق الزورق البخاري يشق عباب الماء حتى اقترب من الربوة التي حاول ماكويرتر الانتحار بإلقاء نفسه من فوقها، وهناك أوقف باتل الزورق وقال بصوت من يتحدث إلى جماعة من أصدقائه: لقد كانت هذه القضية من أغرب القضايا التي مرت بي ولذلك أريد أن أمهد لها بكلمة عن جرائم القتل بصفة عامة. إنكم حين تقرؤون عن جريمة، سواء خيالية أو واقعية، تبدؤون دائماً بالجريمة ذاتها، وهذا خطأ لأن الجريمة هي ذروة ظروف وعوامل مختلفة تتلاقى في وقت معين ومكان معين، وأبطالها هم أناس مختلفون يأتون من شتى أنحاء العالم لأسباب غير متوقعة. فالسيد توماس رويد مثلاً جاء من الملايو والسيد ماكويرتر جاء لزيارة مكان حاول الانتحار فيه، أما الجريمة ذاتها فكانت نهاية القصة... كانت ساعة الصفر.

وتريث قليلاً ثم قال: نحن الآن في ساعة الصفر. فتحولت إليه عدة وجوه عليها علامة استفهام وقالت ماري إيلدن: هل تعني أن مصرع الليدي تريسيليان كان خاتمة ظروف مختلفة اجتمعت للقضاء عليها؟

- كلا يا آنسة إيلدن. إن مصرع الليدي تريسيليان كان حادثاً عرضياً في طريق القاتل إلى هدفه الرئيسي. والهدف الرئيسي للقاتل هو القضاء على أودري سترينج، وقد دبرت الجريمة منذ وقت طويل ولم يغفل القاتل أدق التفصيلات، وكان الهدف أن تُشنق أودري سترينج حتى تموت. لقد بدأ المجرم خطته باصطناع طائفة من الأدلة لإدانة نيفيل سترينج، ووضع في حسابه أننا متى أمطنا اللثام عن زيف هذه الأدلة فإننا لن نتوقع أن يتكرر نفس الشيء فيما يقدَّم إلينا من أدلة ضد أودري سترينج. والواقع أن جميع الأدلة التي ظهرت ضد أودري هي مما يمكن اصطناعه، فمن السهل جداً انتزاع مقبض بابها وسرقة قفازها ومساحيقها، وكان طبيعياً أن توجد بصمات أصابعها على الشريط الطبي اللاصق الذي تستعمله. ثم جاء الدليل الدامغ الأخير، وهو اعتراف أودري نفسها! وأنا لم أكن لأصدق بعد اعترافها أنها بريئة لولا أن لي تجربة شخصية في هذا المجال، وعندما رأيتها وسمعتها تذكرت على الفور فتاة أخرى فعلت نفس الشيء واعترفت بجريمة لم ترتكبها. لقد خيّل إليّ في تلك اللحظة أن أودري سترينج تنظر إليّ بعيني تلك الفتاة، على أنني أديت واجبي كشرطي وقبضت عليها. قبضت عليها وأنا أبتهل إلى الله في سرّي أن يرسل معجزة تنقذ هذه السيدة المسكينة... وجاء السيد ماكويرتر فكان هو المعجزة المنشودة.

ثم نظر إلى ماكويرتر وقال: أرجو أن تعيد رواية القصة التي رويتها لي في القصر.

تكلم ماكويرتر بإيجاز فذكر حادث محاولته الانتحار

وكيف جاء لزيارة المكان الذي كاد أن يشهد مصرعه، ثم قال: وفي ليلة الإثنين الماضي كنت أقف فوق الربوة، وكانت الساعة الحادية عشرة تقريباً، فحانت مني التفاتة إلى قصر الليدي تريسيليان ورأيت حبلاً متدلياً من إحدى النوافذ ورجلاً يتسلق الجدار مستعيناً بهذا الحبل.

فقال باتل: إن الجدار الذي تسلقه الرجل يطل على النهر، ولم تكن هناك قوارب، ومعنى هذا أن الرجل لا بد أن يكون قد عبر النهر سباحة. ونحن نعلم أن شخصاً كان على الضفة الأخرى للنهر في تلك الليلة، شخصاً لم يره أحد فيما بين الساعة العاشرة والنصف والساعة الحادية عشرة والربع، وربما كان لهذا الشخص صديق في القصر دلّى إليه الحبل. أظن أن ذلك واضح ومفهوم يا سيد لاتيمر.

فصاح لاتيمر: ولكني لا أعرف السباحة... الجميع هنا يعلمون ذلك.

فصرخت كاي في هلع: أحقاً؟

- مشى باتل ببطء إلى حيث كان لاتيمر يقف عند حافة الزورق، وبحركة فجائية قذف به إلى الماء.

- يا إلهي! إنه حقاً لا يعرف السباحة.

وأتى نيفيل بحركة كأنما ليقذف بنفسه إلى الماء لينقذ لاتيمر، ولكن باتل أمسك بساعده بقوة وقال في هدوء: لا ضرورة لذلك يا سيد سترينج، إن رجالي سينقذونه.

ثم نظر إلى الماء واستطرد قائلاً بعد لحظة: نعم، إنه لا

يعرف السباحة وسوف أعتذر إليه، والواقع إنه لا توجد وسيلة لاختبار قدرة الشخص على السباحة أفضل من إلقائه في الماء. هذا عن السيد لاتيمر، أما السيد توماس رويد فإنه بطبيعة الحال لا يستطيع أن يتسلق الحبل والسباحة لإصابة في ساقه. وهكذا لا يبقى أمامنا سواك يا سيد سترينج! إنك رجل تجيد لعب التنس والجولف والسباحة وتسلق الجبال. صحيح أنك أخذت زورق العبور في الساعة العاشرة والنصف ولكن لا أحد رآك في فندق إيسترهيد قبل الساعة الحادية عشرة والربع.

ضحك نيفيل وقال: هل تعتقد أنني عبرت النهر سباحة وتسلقت الجدار مستعيناً بالحبل؟

- مستعيناً بالحبل الذي دليته بنفسك من نافذة غرفتك.

- ثم قتلت الليدي تريسيليان وعبرت النهر مرة أخرى؟ ولماذا أفعل ذلك؟ ومن الذي اصطنع كل هذه الأدلة ضدي؟ هل تزعم أنني اصطنعتها بنفسي؟

- تماماً، وهي فكرة رائعة.

- وما الذي يدعوني إلى قتل الليدي تريسيليان؟

- لا شيء، ولكنك كنت تريد شنق المرأة التي هجرتك إلى أحضان رجل آخر. إنك مختل الشعور منذ كنت طفلاً. لقد فحصت بنفسي ملف قضية القوس والسهم وعرفت حقائق كثيرة، منها أنك لا تطيق الإهانة أو الإيذاء وأن عقوبة الإهانة والإيذاء عندك هي الموت، ولكن الموت وحده لم يكن كافياً لأودري... أودري التي أحببتها قبل أن يتحول حبك إلى

كراهية، ولذلك فكرت في أن تهيئ لها ميتة خاصة، ولم يكن يهمك في سبيل تنفيذ هذه الفكرة أن تقتل المرأة التي كانت لك بمثابة الأم.

قال نيفيل في هدوء: كذب... كل هذا كذب! أنا لست مجنوناً.

- لقد طعنت كبرياءك في الصميم حين هجرتك من أجل رجل آخر، ولكنك حاولت أن تنقذ ما يمكن إنقاذه من كبريائك فزعمت أمام الناس أنك أنت الذي هجرتها، واقترنت بامرأة أخرى وبدأت تخطط للقضاء عليها، ولم تجد لها عقاباً أسوأ من الشنق. كانت خطة رائعة ولكنك لم تحسن تنفيذها كما ينبغي. لا بد أن أودري أحست منذ البداية بما تضمر لها وأنها كانت تضحك في سرها من سذاجتك.

صاح نيفيل: أنا لست ساذجاً. أنت نفسك قلت إنها كانت خطة بارعة! ولكن من كان يتوقع أن يراني ذلك الوغد الاسكتلندي أو أن يكون توماس رويد على علم بحقيقة ما حدث بين أودري وأدريان... أودري لعنها الله! يجب أن تُشنَق... اشنقوها. إنني أمقتها وأريدها أن تموت!

ودفن وجهه بين كفيه وراح يبكي كالأطفال.

* * *

(تمت)